
كيف تتذكر
أحلامك
عمرو عزت



كيف تتذكر أحلامك

عمرو عزت






كيف تـ
KAYFA TA

كيف تتذكر أحلامك

كمتاهة **٧**
ما الذي نتذكره من متاهة؟

كرفقة **٢١**
كأنما كان الله معنا

كنبوة **٣٣**
إني أرى أني أذبحك

كتمشية **٤٥**
مسيرة إلى صحراء الرخام

كافتتان **٥٩**
لقاء مع العدم

كمعركة **٧١**
ما بوسعنا أن نعانيه

كفراغ أبيض **٨١**
من يرسم كل هذا اللاشيء؟

فهرس **٩٩**

كمتاهة

ما الذي نتذكره
من متاهة؟

لعدة صباحات متتالية، كنت أجلس إلى طاولة المطبخ القصيرة، حيث كانت ذقني تكاد تلامس سطحها، أشرب الشاي باللبن الذي أعدَّته أمِّي، كاتمًا غضبي وخوفي منها: كيف استطاعت تلك الليلة أن تتركني أتوه في حَواري إمبابة؟

ذلك الصباح، أفلت مني العتاب وسألتها، محاولًا كبْتَ الدموع المتجمِّعة في عينيَّ، كيف استطاعت أن تفعل ذلك. ضحِكَت ووَضعَت كفَّها على خدِّي وهي تقول إن شيئًا مثل ذلك لم ولن يحدث. انفجرتُ في البكاء، وقلت لها إنَّني أذكر جيدا ما حدث ولكن لا أذكر أنَّها عادت ووجدتني، لابد أنَّها فعلت، وإلا كيف إذن عُدت إلى البيت؟

نظَرَت في عينيَّ بدهشة ملتاعة وتوقَّفت عن الضحك، مسحت دموعي وأخذت تعتذر طويلًا وبشِدَّة.

كانَت هناك على مسافة أشعر أنَّها غير آمنة بالنسبة لصبيٍّ لم يعرف بعدُ الطريق وحده إلى البيت وسط الحَواري المتعرِّجة التي تحوط بيت جدَّتي.

كنَّا في الطريق إلى هناك، وعندما اقتَرَبَت من مفرق نظَرَت خلفها لتجدني أبعد من المعتاد، لم تنادني لأقترب، لم تنتظرني، فقط التقت عيناها بعينيَّ المذعورتين ثمَّ غابت خلف الناصية.

جريتُ إلى الناصية، وعندما وصلتُ لم أجدها هناك، جريت إلى المفرق التالي، نظرتُ إلى اليمين وإلى اليسار، لم أجدها، تسمَّرت مكاني وبدأت أبكي بحرقة.

كنْتُ تائهًا، أين أضع ذلك الحدث المُفجع، الذي تبدو بدايته غائمة ونهايته مفقودة؟ يتكرَّر ذلك الحدث نفسه بأشكالٍ مُختلفة؛ أتوه في النادي، أتوه حول المدرسة، أتوه في السوق عندما أُفلِت يد أمِّي، أتوه حول بيتنا ولا تقودني الشوارع المألوفة إلى شارعنا.

لم يكن ذلك الحدث وحده؛ كان واحدًا من تلك الأحداث غير العاديَّة منقطعة الصلة مع تلك الأحداث الأخرى العاديَّة. الآخرون الذين يشاركونني هذه الأحداث ليس لديهم أيَّ فكرة، أو ربما لا يتذكَّرون ما أذكره أنا جيِّدًا.

تلك الأحداث غير العاديَّة تبدو مثيرة لدهشتهم عندما أحكيها، ويبدو مثيرًا لدهشتي أنَّهم يبتسمون لها أو يضحكون بشدة، يتعاطفون معي بشأنها ويشفقون بحنان، وفي النهاية يقولون إنَّ كل ذلك لم يحدث فعلًا. كأنَّني تهْتُ قليلًا في مكان يعرفونه جيِّدًا ولكنَّهم ينكرون بثقة كلَّ ما يحدث فيه.

يدخل الأطفال تدريجيًّا إلى عالم «الحقيقة»، بعد فترة من التيه التي تنقشع شيئًا فشيئًا، بفضل الإمساك بيد الكبار والثقة في تمييزهم بين ما يحدث فعلًا وبين ما لا يحدث، بين «الحقيقة» وبين الكذب والخيال والأحلام والأوهام، بين الروابط والعلاقات والشروط التي تحكم أحداث الحقيقة وتلك الأخرى في الكتب المصوَّرة والحكايات الخياليَّة والأفلام. يسلِّي الكبارُ الأطفالَ بكلِّ تلك الحكايات والشخصيَّات الخياليَّة التي يصنعها الكبار ويقدمونها للأطفال، ولكن إن زاد تصديقهم لوجودها بقدرٍ أكبر من المطلوب للتسلية داخل المنطقة المخصَّصة للصغار، أو طلب الأطفال الاتصال بهذا العالم أو استدعاءه إلى «عالم الحقيقة»، مثلا: «لماذا لا يوجد تنِّين في حديقة الحيوانات؟»؛ يضطرُّ الكبار للإنكار ونفي «حقيقية» هذه الأحداث والموجودات.

يدفع الكبارُ الأطفالَ إلى متاهات خياليَّة مرسومة ثم ينتشلونهم منها في الوقت المناسب. ولكن ذلك الانتشال لا يكون دائمًا مقنعًا ونهائيًّا؛ رغم كلِّ الثقة في أيديهم التي تحمي الأطفال من التيه أو تخرجهم منها، لا يكون مقنعا إلَّا مع الوقت، بانضمام الأطفال إلى عالم الكبار واختبار متاهة الحياة وسط الأغراب، بلا يدٍ تقود في كلِّ خطوة إلى الأمان، بالتجارب المرتبكة والمتعثِّرة قبل التأقلم والتكيُّف داخل شبكة الروابط والعلاقات والشروط التي تحكم حياة الناضجين، وأمام هذا الارتباك يتعلَّم الأطفال ضرورة الخضوع لهذه الشروط من أجل تجنُّب التيه الذي يصبح اسمه «طفوليَّة» أو «عدم نضج»، من أجل البقاء بالقرب من الآخرين والاحتماء بهم أو الصراع معهم. هذا الخضوع هو ما يشكِّل الاتِّفاق بين الكبار وحدهم على أنَّ ما يعيشونه من أحداث مشتركة هو «عالم الحقيقة»، تنتمي الأحداث والصور الأخرى غير الخاضعة إلى عوالم التيه.

أعيُنُهم الفزِعة استقبلتني.

- أختُكَ هَرَبت.

أصمُت للحظات ثم أسألهم: أنا عندي أخت؟

يردُّ أخي محمود كأنَّه ينبِّهني لشيء أنساه عادة:
أيوه، أيوه، أختك.
- أختي إزاي؟
يواصل تنبيهي: أختك من مرات أبوك التانية...
أنظر إلى أبي: مراته التانية؟
يرد محمود: أيوه أيوه ... أختك هربت.

أغرق معهم للحظات في صمت مُحاولًا أن أتذكَّر شيئًا. يقطع أبي أفكاري: إنت الوحيد فينا اللي بتحبك، حاول تكلمها وتشوف هيّ فين.
- أنا؟
محمود: أيوه يا عمرو... حاول تكلمها بسرعة...
أَنْظُر إلى عينَي محمود محاولًا أن أفهم وأقول:
حاضر... حاضر هاكلِّمها.

أنزل إلى الشارع، يبدو لي كأحد شوارع منطقة السوق العربيّ في الخرطوم، هذا الشارع يذكِّرني بشارع ما في إيطاليا، التي لم أذهب إليها. في الشوارع الجانبيَّة المتفرِّعة كان شبابٌ يرتدون الكمَّامات ويركضون هربًا من سحابات غازٍ مسيل للدموع.
سحابات الغاز تتماهى من بعيد مع ضباب كثيفٍ

نادرًا ما يخيِّم على القاهرة. أجلس على رصيف تظلِّله بواكي بناية كلاسيكيَّة، أُخرج تليفوني وأتَّصل.

- أيوه، مين؟
- أنا عمرو.
- عمرو مين؟
- عمرو أخوكي.

تصرخ فجأة وتحكي لي في سرعة إنَّ كلَّ شيء يجب أن يتغيَّر وإنَّها لن تعود ثانية وإنَّها لن تتحدَّث إلى أحد منهم.

تاه بصري في الضباب وسمعي في صوتها الصاخب الغاضب، قالت كلامًا كثيرًا وضاع منِّي خيط الكلام، هدأَت فجأة وسألتني: إنت رأيك إيه؟

كان ردِّي: أنا معاكي طبعًا، خلِّي بالك من نفسك، وكلِّميني لو احتجتي أيِّ حاجة. هاقول لهم إنك مش بتردِّي عليَّ.
انفَجرَت باكية وقالت إنَّها كانت تتوقَّع ذلك، أنَّني الوحيد الذي سيساندها، تحوَّلت إلى الضحك وقالت إنَّها الآن مطمئنَّة بشكل ما، وإنَّها كادت تموت من الرعب من ساعة ما تركت البيت.

ابتسمتُ وسكتُّ وسَكَتَت هي قليلًا، وهي تستجمع أنفاسها من وسط البكاء والضحك.
لم أجد شيئًا أقوله فسألتها: إنتي اسمك إيه؟
ردت: اسمي دينا.
- طيب يا دينا، خلِّي بالك، وطمِّنيني دايمًا، سلام.
سمعتها تقول «سلام» بصوت هادئ كأنَّها على وشك النوم.

تعب مفاجئ ثقيل يحط بي، أسندت ظهري إلى أحد أعمدة الباكية التي تظلِّل الرصيف ومددت ساقيّ أمامي، وأغمضت عينيَّ، مرَّ من أمامي بسرعة مجموعة شباب يجرون وهم يكحُّون بعنفٍ، رنَّ التليفون وظهر اسم أبي، فكَّرت أنِّي مرهق بما فيه الكفاية. سأغلق التليفون وأرجع إلى بيتي وأكذب عليهم غدًا.

لا يوجد وفاقٌ إنسانيٌّ كامل، حتى في عالم الكبار، بخصوص «عالم الحقيقة». بخلاف الانقسام الإنسانيِّ الكبير إن كان الله موجودًا أو غير موجود، فتذكُّر الأحلام كان سببًا في انقسام كبير بين الفلاسفة، فيما يعرف بـ

«مشكلة الحلم». رأى بعض الفلاسفة في الأحلام، وما نذكره فيها من إدراكنا لصُوَر وأصوات، دليلًا على أنَّ الإدراك الحسيِّ للصُوَر والأصوات لا يعني بالضرورة الوجود الحقيقي لما نراه أو نسمعه. وانتهى ذلك بانقسام الفلاسفة بخصوص وجود العالم المادي «حقًا» ، هكذا يَبْتلِع تذكُّرنا لأحداث «عالم التيه» يقيننا إزاء أحداث «عالم الحقيقة» المزعوم.

اتخذ رينيه ديكارت، مثلًا، من «مشكلة الحلم» أحد دوافع شكِّه الفلسفيِّ في كلِّ شيء، بالرغم من أنَّه اتجه للتفلسف أصلًا بسبب ثلاثة أحلام رآها في ليلة واحدة. في الحلم الأول، كانت هناك رياح تدفعه بغلظة في اتجاه الكنيسة (اللاهوت الكلاسيكيّ). في الحلم الثاني، وجد قاموسًا لاتينيًّا وفتحه وأوَّل ما قرأه بلا قصد كانت عبارة «أيُّ طريق في الحياة يجب أن أختار؟» (الفلسفة). وفي الحلم الثالث، وجد ديوانًا شعريًّا فيه بيت شعر باللاتينيَّة يقول: «ما الذي يكون وما الذي لا يكون» (الشكّ).

ترك ديكارت نفسه للشكِّ ليأخذه بعيدًا عن اللاهوت الكلاسيكيِّ، ولكنَّ الفلسفة أعادته مرَّة أخرى إلى الله. وبوصفه فيلسوفًا مؤمنًا، استدعى ديكارت الله ليحاول أن يحلَّ إشكال الانقسام الفلسفيّ حول وجود عالم الحقيقة

الذي يلمسه إدراكنا الحسيُّ. قال إنَّه لا توجد بالفعل أدلَّة عقليَّة كافية تثبت أن إحساساتنا تعني أنَّ ما نحسُّ به موجودٌ فعلًا، ولكنَّ الحقيقة أنَّ ما نعتقد أنَّه موجود بالفعل، بعد الشكِّ والتمحيص والبحث، فهو موجود إن شاء الله. لماذا؟ لأن الضامن في ذلك هو «الله»، لأنَّه لا يعقل في رأي ديكارت أن يكون الله قد خلقنا وخلق أفكارنا عن عالم لا وجود له، هذا الخداع لا يليق بكمال الله، لا يمكن أن يخلق الله عالمًا كاملًا من التيه.

فنَّد لنا أستاذ «فلسفة الدين» في جامعة القاهرة ثغرات أفكار ديكارت السابقة باستخفاف، ساخرًا من الفيلسوف المسيحيِّ المؤمن الذي اتجه للتفلسف بعد أن رأى ثلاثة «منامات» كالقدِّيسين فقام يتلاعب باللغة الفلسفيَّة ليدعم إيمانه المُسبق الذي لم يجرؤ على نقده بجديِّة. وفي ختام المحاضرة، كان الأستاذ يؤكد لنا وعينَيه تجحظ باليقين وابتسامته تتَّسع بالثقة أنَّ الإسلام هو الدين الحقُّ الموافق للتفلسف الصحيح، وأن ذلك هو موضوع المحاضرة التالية.

في صالون حلاقة أدخله للمرة الأولى كان سلافوي جيجيك هو الحلَّاق. بدأ جيجيك سريعًا في قصِّ لحيتي بدون إذني، كان الأوان قد فات على الاعتراض، انتظرت حتَّى انتهى من حلقها تمامًا وقمت غاضبًا، قلت أنَّني كنت أريد قصَّ شعر رأسي لا لحيتي، أنا لا أحلق لحيتي. اعتَذَرَ بنفاد صبر وهو يعبث بقميصه ولحيته الرماديَّة بشكل هيستيريٍّ. تركته في غضب خارجًا فتبعني وطالب بأجرة قصِّ اللحية، رفضت فأحضر الموسى وهدَّدني به. جريت فانطلق خلفي، توقَّف هو فجأة وصرخ «انتظر!»، فتوقَّفت، رجع سريعًا وجذب صاج دكان الحلاقة بعنف إلى أسفل، انتظرته حتى انتهى من غلق الدكان بالأقفال ثم التفتَ إليَّ معاودًا الجري وهو يصرخ بإنجليزيَّته ذات اللكنة: مرحبًا في صحراء الواقع welcome to the desert of the real.

عندما نحاول أن نتذكَّر فإنَّنا عادة ما نحاول أن نتذكَّر «الحقيقة»، أو نتذكَّر «الطريق»، ولكن ما الذي نذكره من متاهة؟ لا زلت أذكر جيِّدًا ذلك المفرق الذي غابت عنده أمِّي وتركتني أتوه، أتذكَّر حتَّى لون طلاء البيوت الذي

تغيَّر. أذكر كيف حفظت سريعًا وعن ظهر قلب الطريق إلى بيت جدَّتي عبر الحارات المتعرِّجة، وكيف صرت أقطع هذا الطريق ذهابًا وإيابًا شاردًا وساهمًا.

كرفقة
كأنَّما كان الله معنا

كنت في الإسكندرية، أمام باب مسجد قرب البحر والشمس فوق رأسي. كان الباب مغلقًا فطرقت عليه، استقبلني أبو العباس المرسي مبتسمًا وقادني إلى الداخل. تقدَّمني إلى رجل يجلس أمام محراب القبلة، كان تلميذ المرسي في التصوُّف: ابن عطاء الله السكندري.

كان ابن عطاء الله يبدو كالمعلِّم، وحوله من أظنُّهم تلاميذه، تجاوزتُهم وجلست أمامه.
قال: تريد أن تسلك الطريق؟ أتقبل أن تكون مع شيخك كالميت بين يدي مغسله؟
قلت محاولًا المزاح: ولكنَّني ما زلت حيًّا.
قال بصرامة غاضبة ونفاد صبر: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

وأشار بيده إلى تلاميذه، فربَّت أحدهم على كتفي أن أقوم معه فقمت. قاموا جميعًا وتفرَّقوا، من ربَّت على كتفي سار معي خطوتين ثم تركني واتَّجه إلى أحد الأركان. اختفى أبا العباس المرسي، اتجهت وحدي إلى خارج المسجد. وقفت أمامه في ظلام ليل لا يقطعه غير ضوء هلال شاحب، أنتظر تاكسي يأخذني إلى محطة سيدي جابر.

بطريق الخطأ، اشتريت كتاب «الحِكَم» لابن عطاء الله السكندري. كنت هائمًا وشاردًا بين طرق التديُّن المتشعِّبة وطرق حي الدقي حول مدرستي الثانوية، وبالقرب من ميدان الدقي وقفت عند فرشة جرائد وكتب، وظننت اسم الكتاب هو «الحُكْم»، وعلى ظهر الغلاف قرأت أنَّ مؤلِّفه ابن عطاء الله، المتصوِّف المصريٌّ، وكنت قد شردت كثيرًا بين الأدبيَّات السياسية الإسلاميَّة، حلم «عودة الخلافة» كان يؤرقني بالفعل وهو يبتعد أكثر وأكثر عن عالمنا، ولم أعلم بوجود هذا الكتاب من قبل، ظننته اكتشافًا، ماذا سيقول المتصوِّف السكندري بخصوص السياسة والحُكم؟ لم يقُل شيئًا بالطبع.

شردت قليلًا مع حِكَم ابن عطاء الله الروحانيَّة التي أخذتني من أحلامي بخصوص العالم إلى أحلام فناء عن العالم، وشهود الوجود الكليِّ القديم والخالد. ظلَّ الكتاب معي في أتوبيس المدرسة، في الصف الأخير في الفصل، في حديقة الأورمان التي يتسلَّل إليها التلاميذ مع التلميذات، وعلى سريري نهاية كل يوم، وعندما قال: «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما كان عليه». بدت

لي أقلَّ جمالًا من عبارتي الروحانيَّة المفضَّلة: «لا تحزن، إن الله معنا»، كما أنَّني لا أملك إلا يقين كوني موجودًا، وفي حالة كَوْن الله موجودًا أحبُّ أن يكون معي، أو أكون معه. إن كان ابن عطاء الله لا يعتقد أنه كان موجود حقًا، أو أنَّه مات فانتبه، فذلك أمر يخصُّه، في النهاية هو ليس موجودًا بينما أنا موجود ومنتبه جيِّدًا، ولا يعجبني أن يجعلني ميتًا مثله.

وزارني ابن عطاء الله في الحلم، أو أنا الذي زرته، وكأنَّه يعرف ما في نفسي وأعرف ما في نفسه، ولم يبدُ أننا سنكون على وفاق.

ذهبت إلى الشيخ قويِّ البُنية نافذ النظرات قاسي الملامح، الذي أظنُّه ابن تيمية، وحكيت له على ما كان من ابن عطاء الله السكندري فقال لي: «لا تحزن، من يسيرون في طريق الظنون والأهواء بلا دليل، ولا يعرفون بالضبط أيَّ طريق يسلكون، لو تبعهم متسائل متشكِّك لارتبكوا في كل خطوة ولما انتهى الجدل عند كل مفرق ولتفرَّقوا طرقًا أكثر من تفرُّقهم وأصبح لكلِّ واحد منهم طريقة». ومال عليّ وقال

بالعامية: «يعني ما تزعلش منهم. هم أصلًا مش عارفين الطريق ومش ناقصين لخبطة!». ضحك بقوة وهو يضرب كفَّه بكفِّي. أخرج سيجارتين وناولني واحدة وسرنا معًا في ساحة سجن القلعة، بملابس السجن.

كان ابن عطاء السكندري شاهدا في محاكمة ابن تيمية على أفكاره ورأيه العنيف في الصوفيَّة وأقطابهم الذي كاد يُذهب هيبة ونفوذ الصوفيَّة عند العامَّة، الذين أخذوا يتزايدون حول ابن تيمية القادم من دمشق. اجتمع علماء المذاهب الأربعة والصوفيَّة وشكوا ابن تيمية للقضاة ودعوا لمحاكمته، وقال ابن عطاء ما يدين ابن تيمية وحرَّض القضاة عليه.

يروى إنَّ ابن تيمية قال بكبرياء أن ابن عطاء لم يخطئ ولم يقل فيه غير الحقيقة. وعندها خيَّر القضاة ابن تيمية بين السجن أو ترك مصر عائدًا إلى دمشق، اختار السجن، ربما لأنَّهم حبسوه هناك أيضًا بسبب أفكاره، وفي الحالتين تبعه مريدوه إلى السجن، يزورونه ويتلقُّون عنه العلم، كما فعلت أنا، وكان يقول لنا: «ماذا يفعل أعدائي بي، إن

جنَّتي وبستاني في صدري، إنَّ حبسي خلوة وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة». قلت له: «لا تحزن، إن الله معنا». تلك الصحبة معه في سجنه وجنَّته وتشريده أجمل وأكثر إثارة وحضورًا من الفناء والاتِّحاد والشرود الصوفيِّ أمام العالم. أنا وابن تيمية والله في مواجهة العالم.

كان ابن تيمية يبحث عن طريق واضح. عرفته عصبيًّا وحادًّا، حاد الطباع وحاد الذهن وعنيدًا، كأنَّه يريد أن يفيق العالم من أحلامه ليلتزم معه بصرامة بطريق محدَّد، واقعيّ ومرسوم بصرامة، مُقرًّا بخطورة الأحلام المتفرِّقة على واقعيَّة الطريق الواحد.

بينما ابن عطاء الله مثل سائر المتصوِّفة كأنَّما صحا من الواقع إلى سكرة مديدة، وارتضى أن يعيش ليتذوَّق حلمًا طويلًا، يوغل فيه بعد أن ينزع عن نفسه العلم والوجود، ويترك نفسه لما ليس يعرفه تمامًا، وبالطبع يسترخي في مواجهة العالم ويسترخي العالم في مواجهته، بشكل يثير غيرتي أحيانًا، وأحيانًا سخريتي.

تتيح سكرة الصوفيَّة وأحلامهم المديدة المتجاورة وقتًا للتسكُّع معهم في فضاءاتهم تلك التي بلا حدود واضحة،

تبتعد كثيرًا أو تقترب وكلُّ شيء يحتمل التأويل، بينما كان طريق ابن تيمية واضحًا في تنبيهي أنَّني أخرج عن الطريق منحازًا للأحلام. وعندما فعلت ظلَّ احترامي لصحبة ابن تيمية الذي ودَّعني على باب سجنه مع إعلان خصومة صريحة نزيهة ومتفهِّمة. لم نعد معًا، ولم يعد الله معنا، وربما لم يكن ابن عطاء الله موجودًا بالفعل، وبالتالي لم يكن الله معه أيضًا، ربَّما كان الله وحده بالفعل ونحن أيضًا وحدنا، وكلُّنا الآن على ما كنَّا عليه.

أنا فوق المنبر أخطب الجمعة في جامع السلطان حسن، إمام المسجد واقف أمامي، مباشرة قدام المنبر، والمصلين خلفه.

قلت خطبة قصيرة جدًّا وغامضة ليس لها موضوع واضح، استشهدت بمقتطفات من سارتر وَوُدي آلن وأغاني الضمة البورسعيديَّة وبعض النكات، انبسط الناس وضحكوا.

بعد دعابة قويَّة أعجبتهم فصفقوا، رأيتها لحظة مناسبة لإنهاء الخطبة، فجلست وأمسكت الموبايل

وبدأت أتصفح فيسبوك وتويتر أتابع الأخبار المندهشة والمصحوبة بمقاطع فيديو تسرَّبت سريعًا من خطبتي التاريخيَّة.
صعد الإمام درجتين من درجات المنبر وقال لي: لسه الجزء الثاني من الخطبة.
قلت له أنَّني انتهيت، قال: ما ينفعش، لازم تكمل شويَّة قبل ما نقيم الصلاة.

قمت وارتجلت كلمة جادَّة عن أهميَّة الكراهية في الحياة السياسيَّة والاجتماعيَّة؛ قلت إنَّ هناك خطرًا كبيرًا في أنَّ كل الرؤساء والسياسيِّين والمشايخ يتحدَّثون عن الحبِّ ويتجاهلون الكراهية بوصفها جانبًا مهمًا من حياتنا، يجب أن يعترفوا أنَّ هناك فئات من الشعب تكره الحاكم وهو يكرههم، وفئات أخرى تكره المشايخ وهم يكرهونهم، يجب أن نعترف بالكراهية ونفكِّر فيها ونديرها بحكمة ونفجِّرها بيننا بصدق، يجب أن تتحرَّر كراهيتنا من الضغائن المضمرة، يجب أن نمارس عداواتنا بشجاعة وأخلاق وبدون خِسَّة.

انتبهت إلى الإمام وقد صَعِدَ بعض درجات المنبر ومد يده يحاول أن يلكزني في رجلي لكي أتوقَّف

عن الكلام. توقَّفت فعلًا، فهرع إلى الميكروفون وأذّن للصلاة ثم قال: احنا بنعتذر عن الخطبة دي لأن الكلام اتغيَّر بسبب عطل فنِّيّ في أجهزة الصوت وطلع منها مخالف لتوجيهات وزارة الأوقاف والأزهر الشريف.

نزلت من على المنبر وعبرت صفوف المصلِّين وهم يصافحونني بإعجاب ومرح ويذكِّرونني بالدعابات والنكات التي قلتها، وخرجت من المسجد وهم يبدأون الصلاة.

كنبوة
إني أرى أني أذبحك

يغلب على ظنِّي أنَّ ديكارت كاذب فيما يرويه عن أحلامه الثلاث، إذ تبدو لي مصطنعة ومختلقة بأثر رجعيٍّ، لكي تكون متناسبة مع قراراته اللاحقة بخصوص حياته وفلسفته. ربَّما كان لذلك علاقة بنفحة «الإيمان» التي توجِّه فلسفته ومنهجه، رغم شهرتها أنَّها فلسفة الشكِّ، وربَّما كان ذلك لأنَّني لم أحب ديكارت بشكل عام.

يتهمني الصديق كريم عنارة دائمًا بالمثل، يقول إنَّ أحلامي كما أكتبها تبدو مؤلَّفة، تفاصيلها ترمي إلى حبكة ما أو فكرة، كما أنَّه كيف لي أن أتذكَّر كل هذه الأحلام أصلًا. لا أعرف كيف أردُّ عليه، لا يوجد ردٌّ ممكن، ربَّما هو لا يحبني بالقدر الكافي ليصدِّق أحلامي.

الحالم هو الشاهد الوحيد على حلمه، وعندما يحكي حلمه فهو يقدِّمه كشهادة على شيء ما حدث له، شيء رآه ولكن لا شهود عليه غيره. الحالم هو الشاهد الوحيد بخصوص حدث ما، حدث منفصل عن كلِّ سياق، منقطع الصلة بالمنطق وطبائع الأمور، لا يمكن نقده وتكذيبه بالتجربة أو العادة أو حقائق الطبيعة والاجتماع أو بالتناقض وعدم الاتِّساق. ما الذي يتبقى لنا معيارًا لنصدِّقه أو نكذِّبه غير إيمان ما بهذا الشاهد الوحيد، أو محبَّتنا له التي تجعلنا نختار أن نظنَّه صادقًا وأمينًا.

في شارع عماد الدين كان الصوان الضخم للمؤتمر الجماهيريِّ الكبير، في الداخل مائدة طويلة يجلس إليها الناس يأكلون، وفي نهاية الصوان خيمة فخمة، أخذني الحراس عنوة وأدخلوني الخيمة، كان محمد حسنين هيكل جالسًا في منتصفها وحيدًا مرتديًا الزيَّ المميَّز لمعمَّر القذَّافي. سألني في تجهُّم إن كنت حلمت بأنور السادات، وما هي تفاصيل الحلم، ماذا قال لي وماذا قلت له، وكان متجهِّمًا أكثر وهو يسألني مستنكرًا: لماذا لم يكن جمال عبد الناصر موجودًا في الحلم؟

هل كان محمود درويش معتذرًا أم مبرِّرًا فيما قاله لـ/ عن جمال عبد الناصر؟

«ولست نبيًّا
ولكن ظلَّك أخضر
نعيش معك
نسير معك

نجوع معك
وحين تموت
نحاول ألّا نموت معك».

الحالمون الكبار يقسمون العالم إلى مؤمنين وكفّار بأحلامهم، الأحلام الكبيرة لا يمكن اتِّخاذ موقف منها بأقلِّ من هذه الحدَّة، مؤمنون بالحلم يسيرون ويجوعون ويحاولون ألَّا يموتوا مع موت الحالم، بعضهم يختار الموت لكي لا يموت الحلم، لكي لا يقتله الكفَّار، ومن أجل هذا يمكن أن يموت بعض أو كثير من الكفَّار.

تصديق الأحلام والحالمين قد ينطوي أحيانًا على العنف البالغ، تشعل الأحلام الصراعات والحروب كي تنتقل من حدث خاص بالحالم إلى أحداث عالم الحقيقة، الحقيقة التي لا ندركها في العالم ولكن نصنعها فيه أو نصنعها منه.

هل قال إسماعيل حقًّا (أو كان إسحق؟): «يا أبتِ افعل ما تؤمر»، عندما قال له أبوه: «يا بني إنِّي أرى في المنام أنِّي أذبحك»؟ كان ذلك حلم النبوَّة الذي رأى إبراهيم بشأنه ضرورة تصديق الرؤيا، أي جعلها «صدقًا»، حدثًا في عالم الحقيقة له آثار وعليه شهود. «التصديق» هنا ليس مجرَّد عمليَّة ذهنيَّة، أو قرار بالتعاطف أو الحبِّ، هو الوعد بالاتجاه إلى تغيير العالم لكي يكون مطابقًا للحلم.

ما أربك بعض المساجين السياسيِّين في سجون عبد الناصر في الخمسينات، خاصَّة الشيوعيِّين، هو أنَّهم صدَّقوه وصدَّقوا أنَّ حلمه - ذلك الذي لا شهود عليه غيره - هو حلمهم نفسه، اعتقدوا أنَّه مجرَّد وليٍّ من أولياء حلمهم، أو تمنُّوا ذلك، وكتبوا بيانات تصديقه وتأييده من السجن، ولكنَّه أراد أن يكون نبيًّا وليس مجرَّد ظلٍّ أخضر، أو أحمر، ولا مفرَّ من الذبائح.

في الحفلة الصاخبة في بيت أحدهم، دخلت أنا ونعيم إلى غرفة خالية لنكمل حديثنا. وجدنا مكتبًا عتيقًا، وضع نعيم كأسه عليه وبدأ يتفقَّد أدراجه. يبدو أنَّه وجد شيئًا، بدأ يقلب في الأوراق، يفتح باقي الأدراج ويقلب في محتوياتها. نظر لي وقال وهو يضحك بهستيريَّة: دا مكتب جمال عبد الناصر.

اقترحت أن نخطِّط معًا لنقل محتوياته سريعًا، ولكنَّه قال لي بحزم لا يقبل النقاش أنَّه يجب أن نحمل المكتب بكلِّ ما فيه وننزل إلى الشارع فورا.
حملنا المكتب وترنَّحنا به على درجات السلِّم، وضعناه في الشارع على الرصيف. شارع صاخب في إمبابة.

أخرج نعيم من أحد الأدراج زجاجة نبيذ وكأسين، وبدأ يصب ويدعوني للشرب. نبهته أننا في الشارع، في إمبابة.

تجاهَلَني وهو منتشٍ، أمسك كأسه وقفز جالسًا فوق المكتب وقال بصوت عال: والله، والله لأقلبه عربية كبدة.

ولكن الحياة لا تتحمَّل طوال الوقت مثل هذه الحدَّة، حدَّة الإيمان والكفر بالأحلام، وحتى النبوَّة لا تحتملها، فباستثناء لحظات اصطدام الحلم بالواقع، أو بعد لحظات انتصار الحلم على الواقع واحتلاله، يجرى عادة تخفيف عنف الأحلام الكبرى وتذويبه مع تيار الواقع، بالتأويل.

يؤوِّل ابن عربي ما رواه القرآن عمَّا جرى مع إبراهيم على خلاف باقي المفسِّرين؛ فكلام الله لإبراهيم: «قد صدَّقت الرؤيا» لا تعني مدحًا للنبيِّ أنَّه صدَّق ما أتاه في المنام وأنَّه حاول نقل الحلم إلى عالم الحقيقة، ولكنَّه كان عتابًا أنَّه صدَّق بحقيقة الصورة الرمزيَّة في الحلم، ونسى إنَّ «المنام هو حضرة الخيال» كما يقول ابن عربي، فاعتقد

أنَّه أُمِر بذبح ابنه، بينما كان مراد الله من تلك الصورة شيئًا آخر غير تصديقها، أو أبعد من تصديقها، وهو تأويلها، ففدى الله الابن بكبش/ذبح عظيم.

نزل الكبش من السماء أو كان شاردًا في الأرض، أراد الله أو أراد الأب؛ في النهاية، كان التأويل الذي أنقذ الحلم وتصديقه، أنقذ حياة الابن ونبوَّة الأب، وأنقذ الواقع من جموح عنف الخيال. الراديكاليَّة تصدِّق أحلام الذبح ولا تبالي بالعالم، والاعتدال يفتدي العالم بتأويل الأحلام.

بدأنا اجتماعنا في مكان سرِّيٍّ، كنَّا أعضاء حملة الدعوة لتأسيس أوَّل برلمان مُنتخب في مملكة خليجيَّة، وكلنُّا من خارج المملكة. الحملة نجحت وأُجرِيت الانتخابات وأُعلِن البرلمان، ولكنَّنا نحن أعضاء الحملة في مأزق كبير.

زميلتنا المذيعة عضوة الحملة متَّهمة بقتل رئيس هيئة كبار العلماء في هذه المملكة دفاعًا عن نفسها بعد ما حاول أن «ينهاها عن المنكر» أثناء تحضيرها لإذاعة خبر تأسيس أوَّل برلمان مُنتخب. أعضاء

البرلمان الجديد تخلوا عنَّا، قالوا إنَّ الظروف لا تسمح أن يبدأوا مسيرتهم الصعبة ضدَّ الملك بالدفاع عن قاتلة عالِم دِين.

اعترفتُ لأعضاء الحملة إنَّني أيضًا قتلتُ شيخًا من هيئة كبار العلماء ودفنته في الصحراء. بدأ أعضاء الحملة كلُّهم يعترفون بأنَّهم في وقتٍ ما قاموا بقتل واحد أو أكثر من هيئة كبار العلماء.

ربما كان ذلك سبب اقتران التصوُّف بالاعتدال: اهتمام المتصوِّفة بتأويل الأحلام، والعبور فوقها من هنا إلى عالم بعيد متعالٍ. تأخذ النزعة الصوفيَّة الأحلام بعيدًا عن هنا، أو تدفنها في الداخل، داخل النفس، أو في الخلوات وفي الصحارى، حول مقابر الأنبياء المتجدِّدين بلا معارك تقسم العالم حولها، وبدلًا من ذلك يعلنون احتضان العالم والناس والحيوانات والأشياء جميعًا، لا يحضر الخيال في أحلام المتصوِّفة ليُقلِق العالم بل ليبشِّرهم وينزع القلق من العالم.

تتحسَّب النزعة الدينيَّة عمومًا من ذلك القلق الذي تثيره بعض الأحلام وتحاول حماية المؤمنين والعالم من تأثيرها،

ولكن لا يمكن تفادي الأحلام كأحد مقوِّمات النبوَّة. يقول النبي محمد إنَّ الرؤيا الصادقة هي جزء من خمسين جزءًا من أجزاء النبوَّة. ها هو جزء من أجزاء النبوَّة متاح للحالمين، تَعِد النبوَّة المؤمنين بها بتقاسم الأحلام معهم، وهذا التقاسم والاشتراك ليس مطلقًا بل مشروطًا.

ككلِّ سُلطة مع رعاياها، فالأحلام التي تتقاسمها النبوَّة مع المؤمنين بها يجب أن تكون أحلامًا تابعة.

يستدرك النبي في قول آخر أنَّ أحلام الناس ثلاثة أنواع: البُشرى من الله وهي وحدها الرؤيا الصادقة، والتحزين والتخويف ومصدرهما الشيطان، وحديث النفس للنفس. وفي قول ثالث يحذِّر: من لعب به الشيطان في منامه فلا يحدِّث به الناس.

البشرى وحدها هي الصادقة، أو يراد لها أن تكون صادقة من جانب كلِّ نبوَّة وكلِّ وعدٍ بالحقيقة والمعنى. في وصايا الأنبياء ولوحات الإعلانات الكبيرة: «احلم—صدِّق حلمك—اتبع حلمك—حقِّق حلمك»، كلُّ هذا مشروط أن يكون الحلم بُشرى في اتجاه المعنى والحقيقة: الله أو الوطن أو اللذَّة أو القوَّة أو الثروة أو الحبِّ (أو الثورة؟)، يتطلَّب هذا أن تكون مؤمنًا أوَّلا بمصدر البشرى، أن تتلقَّى

البشارة، أن تواصل الإيمان رغم كل التشويشات المعاكسة من الشيطان أو الأعداء أو الألم أو الضعف أو الفقر أو الخذلان أو السُلطة (أو الثورة؟).

هل يمكن أن نرى لافتة إعلانيَّة كبيرة عليها رجل يهمُّ بذبح ابنه تحت شعار ضخم بلون زاه: «اتبع حلمك»؟

كتمشية
مسيرة إلى صحراء الرخام

لأكثر من إجازة صيفيَّة انشغلت تمامًا بالمشي، بدلًا من البحث الدؤوب عن الطريق والرفقة كانت تأتي نوبات المشي كاستراحات، ثم تحولت إلى هواية ورغبة مستقلَّة. كنت استيقظ متحمِّسًا تمامًا للنزول والمشي بلا خطَّة. انضمَّ لي صديق طفولة ضحك في البداية من الفكرة ولكنَّه أحبَّها لاحقًا. نبدأ المشي عقب صلاة الظهر أو العصر، نختار أي وجهة بشكل عشوائيٍّ، داخل إمبابة أو حولها، ونسير لساعات، لا نستريح على مقهى ولا ندخل مطعمًا، ولكن نجرِّب معظم محلَّات العصير. أحيانًا نجرِّب ساندويتشًا واقفين أو ماشين، نجرِّب المساجد المختلفة ونستريح دقائق بعد الصلاة، نسير في الشوارع الجانبيَّة، نتوقَّف من أجل مشروب مثلَّج عند كشك ونتفرَّج على البلكونات.

مشَّطنا جانبي النيل من إمبابة إلى المعادي، قطعنا كل الكباري فوق النيل ذهابًا وإيابًا، وقبل أن نتعب تمامًا نفكِّر في خطَّة العودة إن كانت يمكن أن تكون مشيًا أو نبحث عن أقرب وسيلة مواصلات.

عند عودتنا يكون الحصاد هو مجموعة من المشاهد لشخصيَّات وشوارع ومحلَّات لا نعرف عنها شيئًا، شريط من الصور المفكَّكة والكثير من الثرثرة والتعليقات

والحوارات الجادة والهازلة التي تستمر لأيام. لا أذكر من حوارات هذه الأيام شيئًا إلَّا أنَّني وقتها قرأت أن أرسطو وتلاميذه كان اسمهم «المشائين» لأنَّهم كانوا يتدارسون الأفكار وهم يتمشون ويتجوَّلون، وقلت لصديقي إنَّنا مشينا بالتأكيد أكثر منهم، فقال لي أنَّه سيكون مملًّا أن نسير مع مدرِّس أو فيلسوف يحدِّثنا عن معنى ومغزى الأشياء.

كان مشيُنا قد تحوَّل في فترات إلى نشاط مكثَّف طاغ، لدرجة دفعت أبي وأبيه للتذمُّر ومعاتبتنا على كوننا أصبحنا معظم الوقت متسكِّعين بلا هدف، قلت لصديقي وقتها إنَّنا بحاجة إلى أرسطو الآن ليتمشَّى معنا لكي يكون لمشينا معنى ولكي لا يغضب منا آباؤنا.

بعدها بقليل داهمنا المعنى بشكل مفاجئ؛ أثناء تمشِّينا في إحدى الشوارع الجانبيَّة الضيِّقة في إمبابة نتفقَّد البيوت والناس لمحت بوستر كبير لعمرو دياب في إحدى البلكونات، يبدو أنَّه بوستر ألبوم جديد، كان عنوانه غير واضح من تلك المسافة، وأثناء تحديقنا في البوستر نحاول اكتشاف اسم الألبوم، ظهرت بنت في البلكونة بجوار البوستر، كانت زميلتي في المدرسة.

بعد انتهاء الإجازة، وفي أول الفصل الدراسيِّ كان عليَّ أن أُبرِّر لها وجودي في شارعها الضيِّق أحدِّق في بلكونتها، ولم يكن كوني أتمشى بلا هدف ثمَّ أتوقَّف لأتفرَّج على بوستر عمرو دياب مبرِّرًا مقنعًا عندما سألتني، كنت قلقًا من غضبها، أن تخبر أهلها ويخبرون أهلي، وساعتها ربَّما يظنُّ أهلي أنَّها هي المعنى وراء ذلك التسكُّع اليوميِّ، ولكنَّها احتفظت بهذا المعنى لنفسها وتجاهلت إجابتي وابتسمت بدلال طفوليٍّ وسكتت، فابتسمْتُ ارتياحًا لارتياحها وابتسمتُ للمعنى المتوهَّم الذي كان لطيفًا على كلِّ حال وابتسمْتُ لسوء التفاهم.

كانت فتاة لطيفة، وظلَّت ابتساماتنا المتبادلة لطيفة، وظللتُ لفترة أتذكَّرها كلَّما سمعت عمرو دياب يقول في أغنية «ويلوموني»: «افرح يا قلبي، احلم يا قلبي، وامشي مشوار المحبَّة لمنتهاه». كان البوستر لألبوم «ويلوموني»، ولكنِّي طبعًا تجنَّبت المرور من شارعها مرة أخرى.

كنا نسير بالكاد في الطرقات المحدَّدة بالعلامات التي تحوط أماكن العمل. إصلاحات كثيفة في الشوارع حول دار القضاء العالي. ينضمُّ الناس إلى مسيرتنا

في صمت. نقطع في هدوء شوارع وسط القاهرة الغارقة في الإصلاحات، بعد وقت طويل من المشي الصامت نَصِلُ إلى أُفُق ممتدٍّ، يهتف أحدنا: وصلنا إلى القدس. يقول آخر: هنا كان المسجد الأقصى. نقف مشدوهين للحظات أمام ساحة رخاميَّة ممتدَّة في الأفق وخالية تمامًا، صحراء رخاميَّة. يقولون إنَّه تمَّ هدم كلِّ المدينة، وحلَّت الأرضيَّة الرخاميَّة محل كلِّ شيء.

الكلُّ فجأة أصبح يرتدي زيًّا موحَّدًا: جينز وتيشيرت أبيض. الساحة الرخاميَّة مزدحمة بالناس من مختلف الجنسيَّات والأعراق. على أطرافها يقف شباب يوزِّعون علب عصير وأكياس مقرمشات. كأنَّه حفل افتتاحيٌّ، أو ختاميٌّ، الكلُّ سعيد ومنتشٍ. الكلُّ يشرب ويأكل. البعض استلقى على الرخام. بعضنا يرقصون الدبكة وآخرون يرقصون على موسيقى ديسكو غير مسموعة. هدوء عميق، لا صوت إلا همهمات بعيدة وصفير خافت للرياح المنزلقة على الرخام. استلقيت على الأرض، وجلست بجانبي الفتاة اللطيفة، قالت إنَّ الأرض دافئة بخلاف ما تبدو عليه، وأسنَدَت رأسها على فخذي ونامت.

الانزلاق نحو المعنى يحدث دائمًا. لا يقبل الناس بتذكر أحلامهم وكأنَّها مجرَّد تمشية في متاهة مع صُحبة متخيَّلة بلا هدف، مشاهد لشخصيَّات وأشياء وأحداث غير مترابطة، يودُّون لو كانت دائمًا طريقًا إلى شيء ما، بشرى أو تحذير أو وصيَّة، استباق للمستقبل أو إعادة تمثيل للماضي. مهما كانت التمشية بسيطة وبلا غرض دائمًا ما يحبُّ الناس أن ينظروا لها كرحلة غامضة ولكنها ذات معنى ومغزى، فقط يجب أن نعرف كيفيَّة الوصول إليه.

يرى ابن عربي أن تفسير الرؤى والأحلام، استنادًا إلى التعبير القرآنيِّ «إن كنتم للرؤيا تَعبُرُون»، هو «عبور» إلى معانيها المجرَّدة في عالم الروح والحقيقة. هذه المعاني في طريقها إلينا، أصبحت «في حضرة الخيال»، فاتخذت أشكال ماديَّة محسوسة، أشياء وأناس وأحداث ليراها النائم وكأنَّه يدركها بحواسه. في الرحلة المعاكسة لتجاوز الخيال يتم الاستعانة بالتأويل لكي نتجاوز الأشكال إلى المعاني، الخيال في الحلم هو هنا جسر أو طريق عند ابن عربي يقطعه معنى الحلم ذهابًا، وربَّما نقطعه معه إيابًا لو كنَّا علماء وعارفين مثل ابن عربي.

تفسير الأحلام مع فرويد أيضًا رحلة في حضرة الخيال، رحلة تخيُّل المادَّة الأوليَّة للعالم، صور الأشياء بعد أن فُكِّكت علاقاتها المعتادة والمألوفة، صارت حرَّة في التشكُّل، تؤدِّي وسط القاهرة إلى القدس، تختفي مدينة القدس بالكامل، وتتحول مدينة بأكملها إلى ساحة رخاميَّة ممتدَّة، تنفصل خبرتي في المشي عن الطرق التي مشيت فيها، وتذهب إلى القدس الرخاميَّة. فرويد أيضًا يطمح في الوصول إلى معنى ما من وراء تفسير هذا التشكُّل، المعنى هنا ليس هو عالم الحقيقة المفارق للعالم الماديِّ والمتعالي فوقه، ولكنَّه هذه المرة بُنية اللاوعي، ما تشير إليه رموز وإشارات المكبوت والمقموع الذي جثم العالم المادي فوقه وطارده حتى هرب إلى الداخل، وبينما ينخرط الوعي في علاقة هادفة مع العالم، أو يحاول، فإن ذلك المكبوت الهارب يخرج ليتمشى قليلًا عندما يغيب الوعي.

كنت عائدا من السوق أحمل معي بعض البقالة، كنت أعبر طرقًا أليفة حول البيت، ألتقي الجيران وأصحاب المحلَّات الذين أعرفهم جيِّدًا، ولكن لم يكن لبيتنا أثرًا؛ فكرة البيت فجأة أصبحت غائمة في ذهني، ولم تعد لديَّ صورة واضحة عنه، ما شكل

البناية وأين توجد تحديدًا وسط تلك التفاصيل المألوفة التي تجعلني أشعر أني قريب من البيت، ولكن لا وجود للبيت؟

سرت ذهابًا وإيابًا بذهن مشوَّش، أقترب من كل ما هو يشعرني باقتراب البيت ثم لا أدري أين يجب أن أتجه بعد ذلك، بدأت دقات قلبي تتسارع، والمشاهد الأليفة أصبحت تزيدني خوفًا وذعرًا، وأعين الجيران لا تُحتَمل. أسرعت مبتعدًا عن كلِّ شيء يذكِّرني بالبيت، وعندما أصبحت بعيدًا بما فيه الكفاية جلست على الأرض وحاولت التقاط أنفاسي ولكنَّ الشعور لم يزل غير محتمل.

أهداني محمد صورة مطبوعة داخل برواز ذهبي لقبَّة الصخرة في القدس وتحتها الآية القرآنيَّة: «وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوَّل مرَّة»، كان محمد مكلَّفا من قبل جماعة الإخوان المسلمين بصداقتي ومعرفتي عن قرب، كانوا قلقين بشأن الشاب الذي ذهب إليهم بنفسه في كليَّة الهندسة بدلًا من أن يأتوا هم إليه، والذي تبدو ميوله الدينيَّة سلفيَّة أحيانًا أو فلسفيَّة أحيانًا أُخرى ولكنَّه فيما

يبدو قرأ معظم أدبيَّات الإخوان. كان دوره أن يتأكد أوَّلًا من كوني لست «مُخبرًا» للأمن، وثانيًا أن يتعرَّف على تكويني عن قرب ليعرفوا كيف يتعاملون مع الشاب الغريب المتحمِّس.

لم يتحسَّن وضعي المضطرب وسط الإخوان في كليَّة الهندسة، بسبب «تكويني الفكريِّ المرتبك والمشتِّت» وفق تعبيراتهم، ولكنَّهم وبرغم ذلك اطمأنُّوا لي وأسندوا لي تحرير مجلتهم في الكليَّة ثمَّ في جامعة القاهرة لاحقًا.وعندما اطمأنَّ محمد لي اعترف لي بدوره وأهداني الصورة، وقبِلتُها وأخبرته أنَّني طبعًا شعرت بذلك، ولم أشعر بأيِّ ضيق لأنني أحببته، وأحببت وقتها إخلاصه للجماعة، حتى لو لم يكن مهتمًّا بصداقتي فعلًا، وعلَّقت الصورة في غرفتي.

كانت اللوحة مقحمة على مزاجي التجريديِّ، بفعل السلفيَّة والفلسفة، الذي يفضِّل الجدران الخالية والأفكار الخالية من الحليِّ والمقبِّلات الدعويَّة التي تملأ خطاب الإخوان العمليِّ الدعائيِّ، الساذج والسطحي في عمومه.
لم يكن لديّ أي مشاعر خاصة تجاه القدس ولا حتى الكعبة، ولم أكن أحبُّ تلك الوساطات الماديَّة التي ترتديها القداسة الدينيَّة وترتبط بها مشاعر المؤمنين، أو يتم

ربطهم بها لاستنفار المشاعر وربط القداسة بضرورة النشاط السياسيِّ: تحرير القدس يبدأ من القاهرة.

ناقشت محمد في ذلك ذات يوم أثناء اشتغالنا على بعض لوحات الهندسة في غرفتي، وعبَّرت له عن مشاعري تجاه لوحة قبَّة الصخرة التي أهداني إيَّاها والمعلَّقة فوق رأسينا الآن، فقط بدافع من صداقتنا التي أصبحت قويَّة، وعن علاقة مشاعري تجاه تلك الصورة بما أودُّ أن أكتبه في نقد الخطاب الدينيِّ السياسيِّ للإخوان، فقال لي دون أن يرفع عينيه من على اللوحة التي يعمل عليها: إنت هاتبقى علماني يا عمرو. كنت أودُّ أن أتذكَّره بقدر من البصيرة لولا أنَّه قال بعدها: وأحسن لك تكمل رسم لوحتك بدل التفلسف، إنت مهندس مش فيلسوف ولا كاتب، ومش هاتكون، ريّح نفسك. عندما ذكَّرته ضاحكًا أنَّه الآن يتحدَّث مع رئيس تحرير مجلَّة التيار الإسلاميِّ في الجامعة عادت له بصيرته وقال لي: هايشيلوك منها قريب، صدقني، إنت تفكيرك مشتَّت وأسلوبك واضح فيه التشتُّت دا.
صادر مشرفو الإخوان أوَّل عدد حرَّرته من مجلَّة الجامعة ولم يُطبع، وأخبروني أنِّي صنعت مجلَّة أقرب لمطبوعات اليسار منها لمطبوعات الإسلاميِّين.

شكرتُهم واتجهت يسارًا.

ضاع جواز سفري في تل أبيب، كنت أبحث عن مكان السفارة المصريَّة هناك، كان معي العنوان مكتوب بالعربيَّة والعبريَّة لكن كلَّ لافتات الشوارع كانت بالحروف الصينيَّة. وجدت السفارة أخيرًا ولكنَّ حارسها قال لي إن مصر سحبت السفير صباح اليوم وأغلقت السفارة ولم يتبقَّ غيره هنا، سمح لي بالدخول واستخدام التليفون فاتصلت بوزارة الخارجيَّة في القاهرة، وشرحت لهم باستفاضة وبالتفاصيل أنني كنت أقوم بتحقيق صحفيٍّ هنا بتصريح من الخارجيَّة ولكنِّي فقدت جواز سفري ثمَّ وجدت السفارة مغلقة وطلبت منهم أن يخبروني كيف أعود.

سمع الرجل حكايتي حتى آخرها بدون تعليق ثم صمت قليلًا قبل أن يقول ببطء: «يعني إنت بتتكلم دلوقتي من إسرائيل؟». أجبته نافد الصبر بأنَّ كلَّ هذه الحكاية الطويلة تعني أنَّنا هناك بالفعل وأريد العودة. بعد فترة صمتٍ ثانية كان ردُّه: «مافيش حاجة اسمها إسرائيل، وما تتَّصلش من هناك تاني». وأنهى المكالمة.

كافتتان

لقاء مع العدم

عندما سألتُها ماذا تريد الآن لتكون سعيدة، قالت إنَّها تودُّ لو أنَّها غير موجودة. كمُحبٍّ لوجودها آلمني ذلك، حاولت تجاوزه بشيء من المرح، فقلت لها إنِّي أسأل عن شيء يمكن أن أفعله. ابتَسَمَت وقالت إنَّه فات الأوان فعلًا لتمنِّي أنها لم تكن لتُوجَد أصلًا، ولكن يمكنها أن تتمنَّى أن تموت، ويمكنني –إن كنت صادقًا فعلًا– أن أفعل ذلك. كان ذلك مروِّعًا.

كانت ملامحها المنسحبة في حزن تجعلني أشعر أحيانًا أنَّها آخذة في الاختفاء، أو أنَّها على وشك الموت. كان ذلك يخيفني ويدفعني لاختلاق أحاديث وابتكار نكات، فقط لأرى ابتسامتها التي تعبر وجهها كبارق خاطف يعيدها إلى الوجود الجميل. كنت أودُّ تثبيت تلك الابتسامة الوجوديَّة، عُدت من هَجري للرسم وحاولت مرارًا أن أرسمها، حلمت بها أكثر من مرَّة، لا أذكر من الحلم سوى تباعد الغمَّازتين وضيق العينين والتماعهما. كما لو أنِّي أودُّ انتزاع هذه الابتسامة وحدها من الوجود المأزوم.

وقرَّرتُ أن أفعل شيئًا من أجل ذلك، وقلت لها إن لديَّ فكرة فعلًا لكي تتخلَّص من وجودها ذلك الذي تريد الهرب منه، نظرت لي باندهاش وفضول ولكن بلا خوف، وكان ذلك مروِّعًا أيضًا.

من مطار الخرطوم تحرَّكت الطائرة، لم تطر، بل تحركت فوق الأرض، خرجت من المطار وسارت في الشوارع، وقفت في إشارات المرور وعبرت الكباري ونزلت الأنفاق، ثم توقَّفت، وأتتني المضيفة وسألتني إن كنت أنا الذي أود أن أذهب إلى القاهرة وقالت إنَّنا الآن قريبين جدًّا ويمكنني أن أنزل فورًا من الطائرة قبل تحركها. نزلت ووجدت حقائبي متناثرة وسط صحراء ممتدة. تحرَّكت الطائرة وسط الرمال مبتعدة.

هي كانت هناك جالسة داخل سيارة مكشوفة، نَزَلَت منها وانتظرتني وأنا أقترب. قالت بهدوء: اتأخرَّت كدا ليه؟ كانت هادئة وكأنَّني لم أكن مسافرًا لمدَّة شهر، ولكن ابتسامتها كانت هناك. توجَّهتُ إليها، لم تُقبِّلني ولم تعانقني ولا حتى صافحتني، اكتفينا بالابتسام المتبادل. سألَتني أين سنضع كل هذه الحقائب، وتوجَّهَت إلى ظهر السيَّارة تبحث عن شيء كأنَّها ترى السيارة لأوَّل مرَّة، أنهت بحثها سريعًا وقالت بيأس وارتباك إنَّه لا مكان لهذه الحقائب، وبدأت ملامحها في الشحوب. ارتبكتُ أنا أيضًا ولكنَّي قلت لها بسرعة إنَّ هذه الحقائب لا تخصُّني. بشكل طفوليٍّ عادت لها ابتسامتها. ركبنا السيارة وأدارت محرِّكها وهي تسألني إن كنت أعرف الطريق من هنا إلى إمبابة.

يرى جان بول سارتر أن علاقة الوعي بالأحلام هي علاقة افتتان، وهذا الافتتان منبعه أننا لا نشعر بقلق الوجود أمام إمكانياته وحريته في الاختبار، الأحلام تسلب «الوجود الحرّ» منَّا، تجعل من ذواتنا أحيانًا موضوعات نشاهدها، أو تبدو حريتنا في الاختيار داخل الحلم وكأنَّها بعيدة عنَّا، نحن نفعل ونشاهد أنفسنا نفعل، ربما نخاف أو نُصاب بالذعر، ربَّما نرتبك ونحتار، ولكن كلَّ ذلك يحدث كعوارض لحظيَّة، بدون ذلك القلق الوجوديّ المصاحب لخيارات الحياة واشتباكاتها في الماضي والمستقبل. نحن في الحلم مخلوقات متحرِّرة من وجودها المأزوم، حتَّى أزمات الحلم لا نشعر أنَّنا مسئولين عنها، هي أشياء قاسية تحدث لنا، نحن موضوعات بلا إرادة أو آلهة ذات إرادة طليقة غير مشوبة بالقلق.

الافتتان يأتي دائمًا مصحوبًا بقدر من استلاب الإرادة، كما في الحبّ. نحن نفتتن برغبتنا إذا كان لا يمكن مقاومتها، إذا غلبت إرادتنا، لا نملك فكاكًا من الأسر إلَّا بألم مُفجع، ألم تجاوز الشرخ الذي يجب أن نصنعه في أرواحنا بين الإرادة والرغبة. أو أن نحب ذلك الأسر ونستسلم له تمامًا، ونسعد

بالتئام إرادتنا ورغبتنا، بانعدام حريَّتنا أمام ذلك الحبِّ، بارتياحنا داخل الافتتان كأنَّه حلم.

وهي تخرج من مكان عملها لآخر مرَّة بعد استقالتها، رفعت يديها وصرخت، كانت قد تركت بيت أهلها وانتقلت للعيش معي، تطلَّب حدوث ذلك أن نتزوَّج فتزوَّجنا سريعًا، بدون أي ترتيبات أو مفاوضات مع الأهل، كلُّ المفاوضات كانت حول قرارانا بانعدام المفاوضات معهم بخصوص حياتنا. ها هي الآن تشعر بامتداد الوجود أمامها، بعدما كان ضيق الحياة في بيت أهلها يدفعها إلى عمل تكرهه لكي تخرج من البيت، وضيق الحياة في عمل تكرهه يدفعها إلى البقاء في بيت أهلها الذي تكرهه. نحن الآن في قلب الافتتان بحريَّتنا المطلقة، بانتصارنا على وجودها المأزوم، ولكن هل كان انتصارًا نهائيًّا؟ هل يمكن أن يحيا الافتتان في قلب الحريَّة الطليقة؟

جلسَت لشهور كطفلة تقلِّب وجودها الحرَّ كلُعبة صعبة وغامضة، كان شعورها أنَّها حرَّة يجب أن تفعل شيئًا يقترب مبدِّدًا الافتتان، ها هو قلق الوجود يعود ويبزغ في الشرخ بين الإرادة والرغبة، هي تريد ولكن لا تشعر بأيِّ رغبة في أيِّ شيء. هي تودُّ فعلًا ألَّا تكون موجودة، ولم يكن لديَّ خطة أخرى، خطفتُ من يدها سكِّينًا موجِّهًا

لصدرها، ولكن لم أنجح في جعلها تبتسم. نظَرَت لي طويلًا بدون ابتسام وأخذت في الأفول وهي متشبِّثة بي.

كنا منهمكين في العمل، دخلَت غرفتنا في اندفاعة واثقة تليق بقامتها الرشيقة وأناقتها وقالت في مرح ودلال: إزيكم؟ التفتنا إليها، اندهش بعض زملائي وأنا ابتسمت، يبدو أن لا أحد يعرفها غيري. لا أستطيع أن أقول إنِّي أعرفها فعلًا، ولكني تذكَّرتها، كانت هناك في الحفلة الصاخبة بجانبي عند طاولة المشروبات حين قالت فجأة بدون أي سياق: أنا ما باشربش إلَّا الويسكي. اقترحت: جرَّبي النبيت. كررت: لا ما باشربش إلَّا الويسكي. هي الآن لها وجه مختلف تمامًا، أقلَّ جمالًا، ولكنِّي لا أشكُّ أنَّها هي، وليس ذلك بسبب أنَّها تحمل في يدها زجاجة ويسكي.

رفعت الزجاجة وقالت: إيه رأيكم في كاسين مع بعض؟
حاول زملائي الاعتذار بأننا مشغولون جدًّا في إنهاء الفيلم، ردَّت أنَّها يمكن أن تساعدنا في العمل. صمتوا جميعًا، رحَّبتُ بذلك وشجَّعتُ زملائي، وافقوا بحذر

على قبول مساعدة الفتاة المجهولة. قمنا جميعًا وتوجَّهنا إلى حوض ضخم، فتحت زجاجتها وصبَّتها كاملة في الحوض، صبَّ زملائي زجاجات أخرى في الحوض، وأفرغوا فيه عبوات مساحيق وأكياس فواكه. ضغط أحدهم زرًّا فتحرَّك السائل في الحوض بهدوء واختلطت الألوان والروائح.

انتظرنا في قاعة واسعة، مدهونة بالكامل باللون الأسود، ذهبت مجموعة وأحضرت لنا كؤوسًا ملؤوها من الحوض، تذوَّقنا جميعًا رشفات صغيرة وغمغمنا معًا في توافق: الفيلم جميل، الفيلم لذيذ. هي كانت تشرب في هدوء، كان وجهها ما زال وجه فتاة أخرى.

في رواية «الهوية» لميلان كونديرا، يسافر جان مارك بشوق إلى محبوبته شانتال، وعندما يصل إلى الفندق يتوجَّه إلى الشاطئ للبحث عنها، من فرط تعجُّله يكاد يصاب في حادثة تودي بحياته، يلمحها عن بعد، يتعرَّف سريعًا على هيئتها الأليفة التي طالما كانت عنده هي هيئة السعادة، يهرع إليها وهو يصيح ويلوِّح لها، تلتفت إليه ولا تبالي، وعندما يقترب أكثر ويرى وجهها يجده

وجهًا آخر غير وجه شانتال، وجه عجوز أقلَّ جمالًا يحمل نظرة لا تعرف من هو جان مارك، لم تكن شانتال، كانت امرأة أخرى.

«لطالما اختلطت عليه هيئة المحبوبة بهيئة نساء أخريات»، يقول كونديرا، «كم مرَّة عاش ذلك! إنَّه يدهشه دائمًا بنفس الاندهاش: هل معنى ذلك أن الفرق بينها وبين الأخريات ضئيل إلى هذا الحد؟ كيف له ألَّا يتعرَّف على طيف الكائن الأحبِّ إليه، الكائن الذي لا مثيل له عنده؟». يعود جان مارك إلى الغرفة ويجد شانتال هناك، يجد وجهها فعلًا قد صار أقلَّ جمالا، ونظرتها كريهة، قالت إنَّها لم تنم جيِّدًا، ولكنَّه شعر وكأنَّ المرأة التي لوح لها على الشاطئ قد حلَّت محلَّها إلى الأبد.

يحلم جان مارك حلمًا معاكسًا لذلك، يتعرَّف على شانتال من بعيد، وعندما يقترب يكون متأكِّدًا أنَّها هي، حتى عندما يرى وجهًا آخر فوق جسدها، لا يزال متأكِّدًا أنَّها هي، في الحلم تكون دائمًا هي شانتال رغم وجهها المختلف. وأوَّل ما يستيقظ يبحث عنها بجانبه وينظر لوجهها الذي يعرفه وينطق اسمها وكأنَّه يودُّ استعادة وِحدَة هويَّتها.

يمكن أن تعبث التفاصيل مع الوعي، تضلِّله وتخدعه، ولكن لدى الوعي إصرار على مطاردة الحقيقة بالحواس والحدس والمنطق من أجل الخروج من المتاهة. الأحلام تذهب إلى أبعد من ذلك، إنَّها تعبث مع الوجود والحقيقة، إنَّها تنفي «الحقيقيّ» في الموجودات، تكتشف العدم الكامن في طبيعتها، كما يقول سارتر. إنَّ تخيُّلات جان مارك عن شانتال تبدأ في الانفصال عن شانتال نفسها، تبتعد عنها، يمكن لتخيل شانتال أن يظلَّ قائمًا حتَّى بعدما ينتهي وجود شانتال، يمكن لتخيِّلاته عن شانتال أن تتعدَّد وتتنوَّع، يمكن أن تكون هناك أكثر من شانتال، يتلاعب الخيال بصورتها كأنَّها لوحة لموجود متخيَّل، يمكن للفنان أن يغير قراراته بشأن شكل جسدها أو شكل وجهها، أو مبدأ وجودها ذاته، كأنَّه وجود خيالي يستحضره الخيال من العدم، ويمكن أن يدفعه باتجاهه ثانية.
شانتال فعلًا موجود خياليٌّ في رواية، وكذلك جان مارك.

كنت جالسًا معها نحاول أن نمدُّ جسور الأُلفة بما نعرفه عن بعضنا عبر فيسبوك لنتجاوز غرابة اللقاء الأوَّل. ولكنَّها أتت واقتربت منا، هي نفسها أو نسخة ثانية منها أتت، سلَّمت على نفسها، أو على نسختها

الأولى، بحميميَّة، وسلَّمَت عليّ بودٍّ متحفِّظ يليق بمعرفتنا القديمة البعيدة عبر فيسبوك. تبادلَت مع نفسها كلامًا قصيرًا وسألَتها إن كنَّا أنا وهي أصدقاء فقالت لنفسها أنَّنا أصدقاء على فيسبوك ولكنَّها المرة الأولى التي نلتقي فيها وجهًا لوجه. الوصف الأدقُّ الآن هو: وجه لوجهين. نقّلت بصرها بين نفسها وبيني، تلك النظرة التي تحاول التخمين: لقاء عاديٌّ أم موعد غراميٌّ. كانت مكشوفة لدرجة أنَّها أصابتنا بالحرج. قطَعَت تخمينها وقالت إنَّها سترحل فورًا معتذرة على التطفُّل، ألقت نظرة أخرى لترى ردَّ فعلنا على الاعتذار وإن كنَّا سنطلب منها الجلوس معنا، لم نفعل، مدَّت يدها لتسلم عليَّ بالتحفُّظ اللائق ولكن بابتسامة متَّسعة بافتعال، ثم قبَّلت نفسها وقالت لها إنَّها ستراها بعد قليل وتحكي لها بعض الأشياء.

كمعركة
ما بوسعنا أن نعانيه

في تلك الأيَّام التي كان يمكن أُنهي تدويناتي التبشيريَّة بـ #الثورة_مستمرة حاولت أكثر من مرَّة أن أبدأ في قراءة «في الثورة» لحنَّة أرنت. ودائمًا كنت أتوقَّف عند المقدِّمة، أتوقَّف عندما تذكُر تلك العبارة المفتاحيَّة لمؤرِّخ يوناني عن الحرب: «يفعل القويُّ ما بوسعه، ويعاني الضعيف ما يجب أن يعانيه». كنت أتوقَّف شاردًا فيما هو بوسعنا وفيما يجب أن نعانيه، ثمَّ أنشغِلُ بالتفكير في ذلك بصوت عالٍ مع رفاقي الأقوياء/الضعفاء على فيسبوك وتويتر وفي التدوينات والفيديوهات والمقالات والندوات والاجتماعات والمسيرات والاعتصامات، يأخذني الافتتان ورفقته وأنسى أن أكمل الكتاب.

لم يمرّ كثير من الوقت حتَّى بدأ يلوح أمامنا ما هو بوسعنا وما هو بوسعهم وما يجب أن نعانيه جميعًا، بدأت تتعقَّد المتاهة والأحلام على تنوعاتها ماضية في عنفها، في نهاية التدوينات بجانب #الثورة_مستمرة بدأت أضيف ما كتبه ألبير كامو على لسان سيزيف: #بلا_يأس_أو_أمل، بقليل من المرارة وكثير من المرح.

بعد وقت أطول وكثير من المقاومة، زادت مساحة المرارة، ولم يختف المرح تمامًا، وأصبحت أُنهي تدويناتي القليلة فقط بـ: #بلا_يأس_أو_أمل.

في شارع النيل، رأيت حنَّة آرنت ترتدي فستانًا داكنًا محتشمًا بدون غطاء رأس، الزي المميِّز للسيِّدات المسيحيَّات في الأحياء الشعبيَّة، كانت تسير بصعوبة، خارجة لتوها من كنيسة الوراق تبحث عن شيء ما. وقفَت قليلًا حتَّى أتى الميكروباص، ركبت بصعوبة وبمساندة من شابَّين، وجلَسَت بجوار الشباك. والميكروباص يتحرك نَظَرَت إليَّ ورفعت كفَّها وأشارت لي بعلامة النصر وابتسمت.

أوَّل ما بدأت تعرُّفي على كلمة «الثورة»، صغيرًا، تخيَّلتها لحظة كبيرة تتوقَّف فيها الحياة تمامًا، ينزل كلُّ الناس إلى الشارع، تغلق كلُّ المحلات وتتوقَّف كلُّ الأعمال، لا يمكن أن يكون هناك متجر مفتوح وقت الثورة، لا يمكن أن يكون هناك أتوبيس أو ميكروباص أو تاكسي يسير في الشارع وقت الثورة، كلُّ المحلات المفتوحة تُقتحَم، كلُّ المركبات السائرة تخرَّب، الناس تسير في مسيرات، الناس تتجمَّع في اعتصامات، الناس تتصادم في اشتباكات، لا

أحد يذهب إلى أيٍّ مكان إلَّا من أجل الثورة، لا أحد يفعل شيئًا خارج الثورة، كلُّ الناس وكلُّ الأوقات للمعركة، لم أتخيَّل ماذا سيأكل الناس وكيف سيعيشون، تخيَّلت فقط كيف سيموتون، كيف سيقتلون بعضهم بعضًا، حتَّى ينتهي الأمر بانتصار كاسح لفريق من الناس على الآخرين، تُسمَّى الثورة باسم المنتصرين، وتبدأ حياة جديدة تحت هذا الانتصار.

كان نيتشه جالسًا على دكة أمام تلك الفيلَّا في المقطَّم مرتديًا جلبابًا داكنًا.
ليست المرة الأولى التي أراه هنا، توقَّفت هذه المرَّة عنده ورفعت يدي لأُحيِّيه وفكَّرت بأيِّ لغة يمكن أن أحيِّيه، فسبقني بلهجة صعيدية وهو مقطب الجبين وشفتاه تتحرك بقوة فيهتزُّ شاربه الكث: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا باشا، تؤمر بحاجة؟

مساء ٢٥ يناير، عندما فرَّقتنا قوات الأمن وطردتنا من ميدان التحرير، وجدنا أنفسنا مجموعات كبيرة في شوارع

وسط القاهرة فواصلنا التظاهر، وعندما فرَّقت القوات مرة أخرى المظاهرات المتعدِّدة حول الميدان انقسمت إلى عدد أكبر من المظاهرات الأصغر تجري في كلِّ مكان وتبتعد عن وسط القاهرة إلى الأحياء المحيطة، وهكذا، بدا لي أن اللحظة بدأت تكبر. هذه ليست لحظة المظاهرة التي تنتهي، هذه هي اللحظة الكبيرة إذن، وجدت نفسي في النهاية مع مجموعة نتظاهر في شوارع حي السبتيَّة قرب الفجر، صعد أحدنا فوق إحدى علب الكهرباء في الشارع المظلم وخطب فينا، قال إنَّنا لن نتوقَّف عن التظاهر حتى يستيقظ الناس وينزلون إلى أعمالهم وينضمون إلينا فنستمر في التظاهر حتى إسقاط النظام.

عندما لمحت تاكسي يقترب منَّا كنت مندهشًا من وجوده وسط الثورة، كانت كلُّ السيارات تجري بعيدًا عن المسيرات مذعورة، ولكن كان هذا التاكسي يقترب وتوقَّف بالقرب منَّا. وجوده أفاقني من حلم اللحظة الكبيرة المستمرَّة بلا هوادة، رأيت سكَّان الشارع وهم يستيقظون على صوت هتافنا وخطبة الخطيب ويطلُّون علينا من الشرفات ناعسين يفركون أعينهم ويعود بعضهم للداخل في هدوء. تذكَّرت أنَّه يمكن أن أنام قليلًا، يمكن أن آكل شيئًا، يمكن أن أذهب لكتابة شيء ما وأنا أشرب كأسًا من النبيذ، يمكن أن نلتقي في المقاهي بعد المظاهرات،

ونحتفل مساءً بعد الاجتماعات، يمكن أن أتعب من الثورة وأسافر شهرًا إلى السودان أتفرَّغ لقراءة شكسبير وسماع الموسيقى السودانيَّة وأتجنَّب تمامًا كلَّ الأخبار عن مصر، أعود وأنشغل لشهور بقصة حبٍّ، يمكن أن أدعوها إلى العشاء، أو إلى المظاهرة، أو إلى الاشتباكات، يمكن أن يموت بعضنا في الاشتباكات، يذهب بعضنا إلى الجنازة وبعضنا إلى السجن وبعضنا إلى الشاطئ وبعضنا إلى الخارج، وبعضنا إلى صفوف الأعداء، يمكن أن أنشغل بكتابة بحث طويل، أن أنشغل بكتابة أحلامي الغزيرة، أن أتابع الأخبار من صالة تحرير الجريدة وستوديو القناة الفضائيَّة، أن أعود من الصالة والاستديو لأكسر أطراف الرصيف وألقي بالحجارة على الأعداء ثم أنتحي جانبًا لأستريح وأشتري بعض المقرمشات من بائع التسالي على الناصية وأتابع الكرَّ والفرَّ والقتلى والجرحى إلى أن تكسحنا صفوف الأعداء فألحق سريعًا بصفوف المنهزمين ونجري معًا كلُّنا بعيدًا.

وجد محمد عادل جاري الموسيقي نفسه منتصف الليل في مبنى تحت الإنشاء تحاصره الشرطة، كان يهرول هنا وهناك مع جيتاره، لا أعلم هل يحاول

البحث عن منفذ للهرب أم مكان للاختباء. كنتُ خلفه أصوِّره بكاميرا محمولة وأعرف أن الشرطة تحاصر البناية لتقبض على مجموعة حاولت أن تقيم في المبنى حفل زار بدون ترخيص.
وجد نفسه أمام حارس العمارة، خمَّنت سريعًا أن الحارس بالتأكيد متواطئ مع الشرطة، وربما هو من أبلغ عن الحفل. تدخَّلت وتخلَّيت عن الكاميرا وقلت للحارس: احنا مش مع الناس اللي كانت بتعمل زار، احنا الأرواح اللي هم حضَّروها، هم عملوا الزار بدون ترخيص لكن احنا عاوزين نمشي في سلام، يا ريت تساعدنا نخرج من هنا وإلا هانضطر نؤذيك.

قال لنا التاكسي الذي اقترب من تجمعنا قرب علبة الكهرباء: حد رايح ناحية إمبابة؟

انتبهت أنَّنا بدأنا في التناقص وأن بعضنا بدأ في الجدال مع الخطيب حول ضرورة التفرُّق الآن والمعاودة غدًا وكيف وأين نتجمع غدًا. ركبت التاكسي مع آخرين، وسألَنا السائق عما نفعله في هذه الساعة المتأخِّرة، قال له أحدنا: الثورة بدأت يا اسطى. قال لنا أنَّه لم يسمع في الراديو عن

أيٍّ ثورة. كان بيتي أبعدهم ولمَّا وصلنا لنهاية الرحلة قال لي السائق ضاحكًا: لو الثورة بتاعتكم دي ما نجحتش، أنا عرفت بيوتكم كلكم يا كباتن.

تسلَّلت مع فريق التصوير واختبأنا بجوار سور السجن. فجَّر مساعدو الإنتاج جزءًا من سور السجن، كان علاء عبد الفتاح ينتظرنا خلفه مباشرة. خرج من الفتحة مسرعًا وصفَّارات الإنذار تُدويّ.

أعطيت أوامري للمصوِّرين وأوقفت علاء وطلبت منه أن يبطئ قليلًا لنتمكَّن من التصوير. صرخ فينا: «إنتم مجانين! بتصوروا إيه؟!».

كان يجري وبجانبه منال ومنى وسناء - طلبنا منهم حضور عملية التهريب - وأنا وفريق التصوير نجري بجانبهم، هم يصوِّرون وأنا أحاول أن أهدئ من ثورة علاء وأقنعه أنَّنا جميعًا للتوِّ ارتكبنا جريمة كبيرة، ولن ينفعنا الهرب، سنعود للسجن عاجلًا أو آجلًا، ومن الأفضل أن يتركنا نصوِّر هذا الفيلم، لأنَّه من الجميل أن نصوِّر هذا الفيلم.

كفراغ أبيض

من يرسم كل هذا
اللاشيء؟

أوَّل رسالة أرسلتها إليَّ منذ افترقنا كانت رسالة غاضبة تطلب فيها مني أن أتوقَّف عن ذكرها في أحلامي التي أكتبها. قرأت الرسالة غاضبًا وتشاجرنا قليلًا بالكتابة:

- أنا مش باكتب اسمك!
- أنت تقصدني بـ«الفتاة اللطيفة»!
- وإزاي حد يعرف إنك «الفتاة اللطيفة»!
- إنت عارف إن صاحبي مجنون بكتابتك!
- شكرًا على الإطراء!
- عفوًا، لكنُّه عرف، وهو دلوقتي مجنون بسبب الأحلام دي!
- وليه ما تكونش أي واحدة تانية!
- أنت بتكتب تفاصيلي كويس!
- شكرًا على الإطراء مرة تانية!
- شكرًا على الحلم المبتذل اللي وافقت فيه أتجوزك مقابل زجاجة نبيذ!
- مجرَّد حلم!
- أتمنى الأحلام دي تتوقف!
- أتمنى!

ثم توقفت الأحلام فعلًا بعدها.

كنت قد أنهيت مشاجرتنا الأخيرة غاضبًا، ألقيت باللابتوب بجانبي على المرتبة البيضاء الموضوعة على السيراميك الأبيض الممتدِّ في الصالة ذات الجدران البيضاء والخالية تمامًا من أيِّ أثاث.

بعد مشاجرتي مع «الفتاة اللطيفة» حلمت بها مرَّة واحدة أخيرة، وشوم ضخمة كثيفة تغطِّي جسدها وأظافرها منشوبة في عنقي وأنا أحاول تخليص نفسي منها، دوَّنت الحلم ونزعت عنها لقب «الفتاة اللطيفة» فلم تتعرَّف على نفسها، اختفت تمامًا بعدها من الأحلام. أو لم أعد أذكر حلمي بها. أُعجبت بإرادة أحلامي أو ذاكرتي الانتقائيَّة، حرًّا داخل الافتتان والأحلام، أقنعت نفسي بذلك وأعجبتني الفكرة، تبقَّى أن أتجاوز ذاكرتي اليقظة وأن أشتري بعض الأثاث. وحتى ذلك الوقت، احتلَّت المساحات البيضاء الخالية أحلامي، تكثَّفت تفاصيل الأحلام في ذاكرتي التي كانت تسير مبتعدة عن تفاصيل الماضي وتنظر خلفها من وقت لآخر تراقب المسافة والخفوت وتذكِّرني أن أتحسس عنقي.

تجنَّبت أماكنها ما يقرب العام. قبيل يناير ٢٠١١ التقينا لقاءً وديًّا متوترًا، كنت أعدُّ نفسي لأبدو ناضجًا متجاوزًا، وكانت تضبط تعبيراتها لتبدو ودودة بما لا يعد بأي شيء.

في الميدان، تبادلنا الأحضان العاديَّة مع الأصدقاء نشوة بلقائنا وسط الاعتصام، ذهبنا إلى السينما في اليوم التالي لتنحي مبارك احتفالًا، ورغم فورة «انتصار الثورة» التي كانت خلفيَّة شاعريَّة، كانت بداية واضحة لصداقة غير متوتِّرة لا تحلم بأكثر من ذلك.

تزاملنا في أنشطة سياسيَّة وفي مكان عمل، تشاجرنا كثيرًا وصالحتني مرة خصيصًا لتسألني كيف تجاوزت حبِّي لها، لأنَّها لا تعرف الآن كيف تتجاوز مشاعرها تجاه صاحبها بعد انفصالهما. لم تكن لطيفة للغاية كما هو واضح، ولكنِّي أجبت بإخلاص محبٍّ سابق:

- تخلَّيت عن كلِّ الحيل الدفاعيَّة، ما قلتش لنفسي إن حبِّي كان تافه أو رغبتي كانت سطحيَّة رغم معاملتك السيِّئة وقلِّة أدبك!

- شكرًا على الإطراء!

- واجهت المشكلة وقلت لنفسي: كان شيء جميل وكنت عاوزه جدًّا لكنَّه انفلت منِّي ولمَّا اتمسَّكت بيه «اتهزأت»!

- اتهزَّأت؟!

- أي نعم، اتهزَّأت. ولكن لا بأس يا عزيزتي، ليست نهاية العالم ولن تكون آخر مرَّة.

بعد أيام كتبت هي تدوينة طويلة عن تجربة الهجر والفقد ومحاولات تجاوزهما وفي نهايتها كتبت «أنا اتهزَّأت!» مع (إيموجي ضاحك). كان ذلك لطيفًا منها رغم كلِّ الحساسيَّات، التي كنت أشعر بها موضوعة أمامي قابلة للتأمل وليست مغروسة في عُنقي، وتدريجيًّا لم أعد أتذكَّرها جيِّدًا.

وسط أسوأ لحظات «انهزامنا»، كتبت تشتم حانقة وامتدَّت شتائمها إلى «الثورة»:

- «شتم الثورة» حيلة دفاعيَّة بنحاول نهرب بيها.
- وإزاي نتعايش مع الخراء دا بدون حيل دفاعيَّة؟
- بنفس الطريقة.
- أي طريقة؟
- نعترف، اشتركنا في شيء جميل وعظيم.
- شكرًا على الإطراء!
- عفوًا، لكنَّه انفلت من بين إيدينا واحنا بنحاول نتمسك به «اتهزَّأنا»!
- اتهزَّأنا بس؟!
- اتهزَّأنا جدًّا! وغالبا لسه هانتهزَّأ كمان! ... ولكن لا بأس يا عزيزتي، ربَّما لن تكون نهاية العالم وأتمنى ألَّا تكون آخر مرَّة. (إيموجي مبتسم).

سألَتني إن كنت حلمت بها مجدَّدًا، وإن كنت أفكِّر فيها أحيانًا كحبيبة مرَّة أخرى. قلت إنَّني لم أعد أحلم بها منذ غضبها من أحلامي المكتوبة، وتجاهلت ذكر الحلم الأخير على سبيل الاتِّساق الملائم أكثر لحواف واضحة للحكايات، واستخفافًا بأظافرها التي كانت في عنقي، وفكَّرتُ في تجاهل الجزء الثاني من السؤال، ولكن بعد فترة صمت متبادلة قلت مع إيماءات فاترة إنَّني ربَّما فكَّرت مرَّة أو مرَّتين.

غضبَت وتركَت المكان، لم تعُد ولم أتصل بها ولم نتكلَّم أبدًا منذ ذلك الوقت. كانت آخر مرَّة.

كان الطابور طويلًا ولكنِّي لم أنضمَّ إليه، قابلت أحمد ناجي على الباب وسلَّمت عليه ودخلنا سريعًا من باب آخر وافترقنا بالداخل. قاعة المعرض واسعة وشاهقة البياض. أسرَّة وكراسٍ بيضاء، أدوات منزليَّة قديمة، غسَّالات يدويَّة، مكاوٍ من النوع القديم العتيق، أدوات قديمة شبه بدائيَّة لعمل الشاي والقهوة. تليفزيونات قديمة صغيرة صورتها بالأبيض والأسود.

على الحائط قرب الباب إرشادات المعرض: اخلع ملابسك، احتفظ فقط بملابسك الداخليَّة، اختر مهمَّة: غسيل الملابس أو الكي أو صنع الشاي والقهوة لمن يغسلون، افتح أقرب تليفزيون وتابعه وأنت تعمل أو وأنت في الانتظار، سيمرُّ عليكم مصوِّرون فيديو وفوتوغرافيا.

باقي جدران المعرض تحمل صورًا لزوار سابقين بالملابس الداخلية وهم يغسلون ويكوون ويشربون الشاي والقهوة ويدخِّنون، وفي التليفزيون الأبيض والأسود لقطات لهم وهم يقومون بكلِّ ذلك ويتفرَّجون على صورٍ أخرى على الجدران للزوار السابقين الذين فعلوا ذلك أيضًا.

وأنا أتجوَّل قابلت ناجي مرَّة أخرى واقفًا في ركن يدخِّن ويشرب قهوة، كان يرتدي ملابسه لم يخلعها، سألته عن ذلك فقال إنَّه من المجموعة المنظِّمة للمعرض ولكنَّه خلع ملابسه واشترك في مرَّة سابقة. سألني محتدا لماذا لم أخلع أنا ملابسي مثل باقي الجمهور ولماذا لم يأت إليَّ واحد من المنظِّمين وينبِّهني للالتزام بالتعليمات.

اقتربت مني مُدرِّسة الرسم بابتسامة مندهشة، وضعت كفَّها على كتفي ومالت عليَّ وهي تشير إلى الصفحة البيضاء تمامًا أمامي وسألتني بصوت هامس لماذا لم أبدأ في رسم لوحة لفلَّاحين يخرِّبون شريط القطار لقطع الطريق على قوَّات الاحتلال الإنجليزي أثناء ثورة ١٩١٩. كان تلاميذ السنة الأخيرة من المرحلة الابتدائيَّة حولي منهمكين في الرسم، كنت تلميذًا موهوبًا في الرسم بالإضافة إلى كوني التلميذ المتفوِّق والأوَّل على المدرسة لأعوام متتاليَّة. قلت لها بقدر من الارتباك إنَّني لا أريد أن أرسم لوحة لفلَّاحين يخرِّبون شريط القطار لقطع الطريق على قوَّات الاحتلال الإنجليزي أثناء ثورة ١٩١٩. ضَحِكَت وسألتني إن كان لديَّ مشكلة ما مع ثورة ١٩١٩ أو مع سعد زغلول، فضَحِكتُ لضحكها ولم أتكلَّم، وكدت أسترخي ولكن ابتسامتها زالت وقالت لي بصرامة وهي ترفع كفَّها من فوق كتفي إنَّ هذا هو موضوع حصَّة ذلك اليوم وإنَّني يجب أن أرسم هذه اللوحة لفلَّاحين يخرِّبون شريط القطار لقطع الطريق على قوَّات الاحتلال الإنجليزي أثناء ثورة ١٩١٩.

كانت مُدرِّسة الرسم سمراء رشيقة، تشبه روبي إلى حد كبير، وكانت ابتسامتها والتماع عينيها لمَّا أرسم في الحصص لثلاث سنوات متتالية أوَّل ما يأتي إلى ذهني عندما كان يسألني الناس ماذا تحبُّ أن تكون عندما تكبر، فأقول إنَّني سأكون رسَّامًا. كانت محاولتها الصارمة لإجباري على رسم لوحة لفلَّاحين يخرِّبون شريط القطار لقطع الطريق على قوَّات الاحتلال الإنجليزي أثناء ثورة ١٩١٩ تحوُّلًا مفاجئًا بعد ثلاث سنوات من التدليل والإطراء والحفاوة.

رفضتُ بإصرار وألحَّت في معرفة السبب ولم يكن لدي أسباب، تركتني بنفاد صبر وأمهلتني للحصة القادمة بعد أيام. بعد أيام فتحت أمامي الصفحة البيضاء الخالية تمامًا وقلت بعناد إنَّني لا أُحبُّ أن أرسم لوحة لفلَّاحين يخرِّبون شريط قطار لقطع الطريق على قوَّات الاحتلال الانجليزي أثناء ثورة ١٩١٩، ويبدو أنَّها أحست بالإهانة والتحدِّي وكتمت غضبها. شكتني إلى المديرة ثم إلى أمي واعتبروا جميعًا أنَّ ما حدث مؤشِّر على أن التدليل أفسدني وأنَّني بدأت في التمرُّد والإهمال. على مدار أيَّام تبادلوا مكالمات كثيرة تحاول أن تفهم لماذا يريدون ولا أريد أن أرسم لوحة لفلَّاحين يخرِّبون شريط القطار لقطع الطريق على قوَّات الاحتلال الإنجليزي أثناء ثورة ١٩١٩.

عندما حكت أمي لأبي في حيرة، ناداني مندهشًا وقال لي إن كنت لا أزال أحبُّ أن أكون رسَّامًا فيجب أن أتمرَّن على رسم كلِّ شيء وأن أكون مستعدًّا لرسم كلِّ شيء، فسألته: ألا يمكن أكون رسَّامًا لو رسمت لوحات أخرى كثيرة ولكنِّي لا أحبُّ أن أرسم لوحة لفلَّاحين يخرِّبون شريط القطار لقطع الطريق على قوَّات الاحتلال الإنجليزي أثناء ثورة ١٩١٩؟ سَكَتَ قليلًا ثم ضحك بشدَّة وقال لي: لا صح، إنت كدا تبقى فنَّان بجد يا ابن الكلب، يلعن أبوك على أبو الفلَّاحين على الإنجليز على ثورة ١٩١٩. التفت لأمي وقال لها جادًّا أن هذا الأمر يجب أن يتوقَّف فورًا، ويجب أن تُخبر من في المدرسة أن أباه أيضًا لا يريده أن يرسم لوحة لفلَّاحين يخرِّبون شريط القطار لقطع الطريق على قوَّات الاحتلال الإنجليزي أثناء ثورة ١٩١٩.

القاهرة تحت قصف عنيف ومتواصل. طائرات تحوم على مستوى منخفض. الشوارع تظلم تدريجيًّا. أنا في وسط البلد أجري مع الناس بلا هدف.

القصف يقف لدقائق، يهدأ الناس قليلًا، يقفون، ينظرون إلى السماء بدهشة وذعر.

فترة توقُّف طويلة للقصف، بدأ الناس يتبادلون التفسيرات: إسرائيل، أمريكا، أثيوبيا، إيران، قطر وتركيا ينتقمون للإخوان، الجيش يؤدِّب الشعب.

يستأنف القصف، هذه المرة بعنف أكبر، وسط البلد أصبحت مساحة كاملة من الخراب، أكوام مبانٍ منهارة ومحترقة. على مدِّ البصر لم أعد أرى مبانٍ عالية.

الجري أخذني إلى محيط محطَّة سكك حديد مصر، لم يصلها القصف. خطر لي أنَّ مغادرة القاهرة قد تكون فكرة جيدة.

بالداخل وجدت تجمهرًا حول القطار، حشود تحاول إقناع سائقي القطارات بالانطلاق. واحد منهم يقتنع. أقفز مع الحشود إلى داخل القطار.

الاتصالات قُطعت تمامًا. لا شبكات تليفون أو إنترنت. الناس المكدَّسون في عربة القطار يتبادلون نفس التفسيرات. مشادات معتادة بين مؤيِّدي الرئيس ومؤيِّدي الإخوان، ومؤيِّدي الثورة من كارهي الطرفين.

وصلنا المنصورة. لا يوجد قصف هنا. لكن الناس هنا تركوا كل المباني في ذعر وملؤوا الشوارع.
زحام أكبر حول المساجد والكنائس، حشود يتنازعها الرغبة في الدخول والاحتماء في مسجد أو كنيسة والخوف من القصف.
مجموعات قرب المقاهي والمطاعم. مجموعات متفرِّقة على الأرصفة وفي الحدائق.

بدأت المجموعات تنخرط في جدل ونقاشات، بدأ الحديث يبتعد عن المشادات المعتادة إلى تفكير فيما سنفعله. توقَّف تمامًا أيُّ بثٍّ تليفزيونيٍّ أو إذاعيٍّ وبدأ الناس يتداولون الأخبار ويتناقلونها بين المجموعات.

بدأت رواية تنتشر بين الناس: الرئيس الأمريكي، اتَّصل بالرئيس وعاتبه أن الصحافة الحكوميَّة لا تزال تتحدث عن مؤامرات أمريكيَّة على مصر، وقال له بعجرفة أن أمريكا لو أرادت أن تهاجم مصر فستهاجمها مباشرة بدون الحاجة إلى مؤامرات. احتد عليه الرئيس ونشبت بينهما مشادة، أنهى الأمريكي المكالمة غاضبًا، وتحرَّك الطيران الأمريكيُّ. خلال ساعات دمَّر القصف القصر، هناك جدل حول وفاة

الرئيس وإن كان قد هرب إلى مكان آمن، ودُمِّرت مباني وزارات الداخليَّة والخارجيَّة والدفاع ومديريَّة أمن القاهرة والجيزة وعدد كبير من معسكرات الجيش ومجمع التحرير وكلُّ مباني وسط القاهرة، بالإضافة إلى سيتي ستارز مول – كان هناك اهتمام خاص بدمار سيتي ستارز مول – بالإضافة إلى الجامع الأزهر والحسين. ملاحظات عديدة تم تداولها في النقاشات أن القصف لم يطل أيَّ كنيسة.

تجوَّلت بين المجموعات، وجدت نفسي قرب حلقة صغيرة، في قلبها رجال يلبسون بدلات كاملة، كان واحد منهم يتحدث بهدوء والناس ينادونه «يا دكتور». كان الدكتور يقول: مافيش مؤشِّرات على احتلال خارجي لكن اللي هايحصل بعد دمار القاهرة وانهيار الدولة المركزيَّة هو تفكك المجتمع، احنا هانبدأ حلقات دراسة علم الاجتماع علشان هانضطر نبدأ نبني المجتمع من جديد.

يشك فرويد أن هناك علاقة بين ما نظن أننا نتذكَّره من حلم، وبين ما جرى فيه فعلًا، ما الضامن فعلًا أنَّ ما

يخطر في أذهاننا عندما نصحو هو ما رأيناه ونحن نيام؟ ربَّما كان الوعي يستلم الزمام فور الاستيقاظ ويحاول سريعًا تدارك انفلات الإدراك منه، يختلق قصَّة سريعة أو يعيد ترتيب أحداث الحلم المتشظِّية تمامًا بشكل أقرب ما يكون إلى الترتيب، وإن كان لا يزال يحتفظ بمساحات الغرابة والغرائبيَّة. ربَّما، لهذا السبب، ينصح فالتر بنيامين المستيقظَ من النوم إذا أراد أن يتذكَّر حلمه ألَّا يتناول طعام الإفطار ولا يبدأ في ممارسة أنشطة اليوم، وأن يمارس طقسًا أو صلاة، أنشطة تنتمي إلى الخيال أو تُناجي عوالم أخرى، ربَّما نجح ذلك في أن يُبعد الوعي والعالم عما حدث هناك في النوم حتَّى يأتي إلى الذاكرة سالمًا.

ولكن ماذا لو أنَّ الأحلام نفسها هي ذاكرة، أو هي تذكُّر. ماذا لو أنَّنا نتذكر في الأحلام خبراتنا بشكل يحاول التحرُّر ممَّا نحن عليه ومن العالم، ذاكرة متحرِّرة منَّا تختبىء وترفض الانصياع والانضمام إلى الذاكرة المملوكة لنا، لا تستطيع أن تعمل إلَّا ونحن مبعدين عن حياتنا بالنوم، تهرب منَّا عندما نعود إلى الوعي ونحاول الإمساك بها. ربما تنفلت منا تمامًا، وربما ينفلت بعضها ويبقى بعضها ليثير شهيَّتنا. تلك الذاكرة المنفلتة تفتننا وتقلقنا عندما تلوِّح لنا أن حياتنا قد تكون غير تلك التي نعرفها أو ما نظن أننا كنا نعرفه ويمكننا تذكُّره، وذواتنا ليست فقط ما نعرفه عن أنفسنا،

وليست فقط ما يمكننا أن نتذكَّره عنها. أو ربَّما هي ذاكرة لا تهدف إلا للَّعب بما حدث وبما كُنَّاه وما نرغب أو نخشى أن نكونه، وبما فَتَننا وأدهشنا وأفزعنا، بما انتظرناه وما فاجأنا، وعندما يفاجئها الوعي أو نفاجئها بالانتباه تمزِّق ما صنعته وترمي به هنا وهناك، تغيب بشكل مراوغ وعابث بينما نحاول لملمة قصاصات الصور والأصوات والكلمات، وتتركنا أمام طرق لا نهائيَّة لتذكر أحلامنا.

وصلتُ إلى المطار، وانتظرتُ في صالة ألعاب واسعة ملحقة به، الصالة بيضاء بكلِّ ما فيها: الأرضيَّات والجدران والأسقف والدكك القليلة المتناثرة.

أنا في هذه الصالة أنتظر أحدهم ليأخذني إلى مكان مؤتمر ما، أتابع حولي حركة نجارين ونقاشين يصنعون أشياء من قطع خشبيَّة كلِّها مطليَّة باللون الأبيض. بدأت أنتبه إلى الصراصير الصغيرة التي تحوم أسفلنا، حجمها صغير جدًّا ولكنَّها واضحة جدا وسط المحيط الأبيض.

دخلت مجموعة من الرجال والنساء في ملابس رسميَّة فخمة وناصعة، مع نظارات شمس داكنة، في عجلة من أمرهم ومتوتِّرين بشدَّة، واحد منهم سألنا: فيه شاعر موجود هنا؟

بدأت أنظر للعمال والعمال ينظرون إليَّ، يبدو أنَّني الغريب عن هذا المكان، لم يجب أحد.

كرَّرت واحدة منهم السؤال: لو سمحتم فيه هنا شاعر؟ يا ريت لو موجود يقول لنا، محتاجين شاعر ضروريّ.

لم يجب أحد، عاد العمال إلى أشغالهم، وظللت أتأمل فيهم وألاحظ الصراصير التي تحوم تحت أرجل المجموعة الأنيقة في البدلات الرسميَّة.

بدا لي ذلك مفتتح قصيدة.

فهرس

فهرس أعلام

ابن تيمية (١٢٦٣ - ١٣٢٨)— ٢٥-٢٨
عالم مُسلِم، وأبرز منظري المذهب السلفيّ، له إنتاج غزير في الردّ على الفلاسفة المسلمين والمذاهب الإسلاميَّة الأخرى والمتصوِّفة، وإثبات ضلالهم وكُفرَهم وضرورة قتل بعضهم. ويبدو انتصاره الجماهيريُّ عليهم واضحًا حتَّى الآن مما يمثِّل مشكلة خطيرة للمسلمين وللعالم أجمع. مواقفه السياسية كانت واضحة وتتَّسم بالاعتداد والكرامة؛ لذلك يكرهه كلُّ علماء المؤسَّسات الدينيَّة الرسميَّة والصوفيَّة، ويحبُّه التيار الجهاديُّ المعاصر. مهما حدث منه أو بسببه لا أستطيع أن أكرهه لأسباب شخصيَّة.

ابن عربي (١١٦٤ - ١٢٤٠)— ٣٩، ٥١
متصوِّف شهير، وأوَّل فنَّان معاصر في الإسلام. في كتاباته، يغيب الفاصل بين خبراته الواقعيَّة وأفكاره الفلسفيَّة والدينيَّة وبين ما يراه في أحلام النوم واليقظة. له مؤلَّف طريف اسمه «المبشرات المناميَّة»، جمع فيه أحلامه التبشيريَّة التي لا أُصدِّق معظمها. قال إنَّه لم يذكر ضمنها الأحلام التي تتضمَّن إشارات لعظمته ومكانته الروحيَّة، ويلمِّح في بعض الكتابات أنَّه أهمَّ من الأنبياء، وألمَح ابن تيمية إلى أنَّه كافر وليس مُسلمًا أصلًا. جمهوره المعاصر الكبير، من المتصوِّفة والفنَّانين وغير المُسلمين، يكرهون ابن تيمية وجماهير ابن تيمية.

ابن عطاء الله السكندري (١٢٦٠ -١٣٠٩)— ٢٣-٢٨
متصوِّف مصريٌّ، كان من أعداء التصوُّف ثم تحوَّل موقفه على يد أبي العبَّاس المرسي صاحب المقام الشهير في الإسكندريَّة. أهمُّ مؤلَّفاته كتاب «الحكم»؛ من ألطف ما كُتب من الأدب الصوفيِّ، وأكثره تعبيرًا عن الميل المعاكس للوجوديَّة والفاعليَّة الإنسانيَّة عمومًا. بسبب هذا الكتاب أصبح ابن عطاء الله أكثر شهرة من أبي العبَّاس المرسي في أوساط المتصوِّفة حول العالم باستثناء الإسكندرية. مات السكندري في القاهرة ودفن في مقام مغمور في سفح هضبة المقطَّم. لا أنسى له ما يُروى عن تآمره مع فقهاء وقضاة مصر ضد ابن تيمية لسجنه بسبب نقده العنيف للصوفيَّة.

أحمد ناجي (مواليد ١٩٨٥)— ٨٧-٨٨
صديق وروائيٌّ وقاص وصحفيٌّ، يعرِّف نفسه على تويتر بأنَّه «كاتب ومجرم»، أُدين بالحبس سنتين بتهمة «خدش الحياء» في روايته «استخدام الحياة» بعد نشر فصل منها في جريدة «أخبار الأدب»، ولكن محكمة النقض ألغت الحكم وقضت بإعادة المحاكمة وتم إطلاق سراحه. يُذكِّرني خياله الجامح بابن عربي وعنف طباعه بابن تيمية؛ لذلك لا أغضب منه عادةً، ويزورني في الأحلام كثيرًا.

محمد حسنين هيكل (١٩٢٣-٢٠١٦)— ٣٦
أبرز صحفيٍّ مصريٍّ في تاريخ الصحافة السياسيَّة المصريَّة، ارتبطت أهميَّته بقربه الشخصيِّ من جمال عبد الناصر ومن دوائر الحكَّام في العالم العربيِّ والعالم عمومًا. كان بوقًا أنيق الأسلوب للعهد الناصريّ، وأدهشني في التسعينات ومطلع الألفيَّة عندما استمتعت بقراءة مقالاته الطويلة الأخيرة بالرغم من أن بُعده عن دوائر القرار لم يُبقِ له شيئًا ذا قيمة ليقوله، ولكنَّه كان يحاول جاهدًا أن يبدو وكأنَّه هناك.

محمد نعيم (مواليد ١٩٧٧)— ٣٨-٣٩
صديق وسياسيٌّ وكاتب يساريٌّ، يلقَّب أحيانًا بـ«الجنرال»، بسبب ملاحظاته الاستراتيجيَّة والتكتيكيَّة، واستشرافه لخرائط معارك الثورة ولخساراتها المؤسفة. أنصح باستشارته في الثورات القادمة. كان لقاؤنا الأوَّل في هيئة تحرير مجلة «البوصلة» اليساريَّة، التي كان من ضمن أجندتها تحرير التفكير اليساريِّ من أسر الميل الناصريِّ القوميِّ. بعد ما رَويتُ له الحلم الذي زارني فيه أكَّد لي أنَّه فعلًا يودُّ أن يحيل مكتب جمال عبد الناصر إلى عربة كبدة.

كريم عنارة (مواليد ١٩٨٣)— ٣٥
صديق وباحث متخصِّص في السياسات الأمنيَّة والشرطيَّة، وربما كان ذلك سبب تشكُّكه في صدق ما أكتبه من أحلام وليس لأنَّه لا يحبني.

جمال عبد الناصر (١٩١٨-١٩٧٠)— ٣٦، ٣٨
الأب المؤسس للجمهوريَّة المصريَّة، يحاول التفكير السياسيُّ المصريُّ والعربيُّ إلى الآن الفكاك من أحلامه وأبوُّته.

سلافوي جيجيك (مواليد ١٩٤٩)— ١٨
فيلسوف ومنظر وناقد ثقافيٌّ سلوفينيٌّ، يفكِّر ويتحدَّث ويكتب بحماسة وحيويَّة مؤثِّرة، تجعله عقائده الراسخة يرى استمرار الرأسمالية مجرَّد حلم طويل ليس أقلَّ خياليَّة من حلم الشيوعية.

علاء عبد الفتاح (مواليد ١٩٨١)— ٧٩
«التنِّين البمبي»، صديق ومدوِّن وناشط وسجين سياسيٌّ في مختلف العصور، صاحب فضلٍ كبير على مجتمع التدوين المصريِّ بإنشائه «مجمع المدَّونات المصريَّة». تدويناته ونشاطه كانوا وما زالوا ملهمين لمجموعات واسعة من الراغبين في التغيير، وكانوا وما زالوا استفزازًا شديدًا للقطاعات البليدة في المجتمع والدولة، وعقابًا له على ذلك، لا يزال في السجن حتى صدور هذا الكتاب.

محمد عادل (مواليد ١٩٧٧)— ٧٧
صديق وموسيقيٌ وعازف جيتار بارز، جارٌ سابق في المقطَّم يضع على مدخل شقته لافتة مكتوب فيها «الحزن مهم»، له إسهامات لطيفة في الكتابة عن الاكتئاب وقسوة الحياة في مرح وتصالح، يتجلَّى ذلك في تعريفه لنفسه أحيانًا بأنَّه «فنان بوهيميّ يفعل ما يحلو لهم».

سارتر (١٩٠٥-١٩٨٠)— ٢٨، ٦٣، ٦٨
فيلسوف الوجوديَّة، حبيب القلب. يبدو اسمه مرتبطًا أكثر بأشياء مقبضة مثل قلق الوجود والغثيان ولكنِّي، بعد تفهم ذلك، أحبُّ أكثر ما كتبه وعاشه من افتتان والتزام بالحياة والأحلام.

فرويد (١٨٥٦- ١٩٣٩)— ٥٢، ٩٤
كتابه ''تفسير الأحلام'' طويل جدًّا ومملٌّ في معظم أجزاءه، وجدت صعوبة كبيرة في أن أقرأه كاملًا ولكنِّي قرأت أجزاء كبيرة منه بعدما شجَّعتني أميرة الأدهم، الشاعرة والطبيبة النفسيَّة، ولخَّصته لي كاملًا بأسلوب شيِّق في مكالمة استغرقت ثلاث ساعات، فشُكرًا لها.

حنَّة آرنت (١٩٠٥-١٩٧٥)— ٧٣، ٧٤
فيلسوفة ومنظرة سياسيَّة ألمانيَّة ولاحقًا أمريكيَّة، زارتني في الأحلام كثيرًا، ربَّما لكونها من الفيلسوفات البارزات المعدودات وسط كل هؤلاء الفلاسفة الرجال، وربَّما لأنِّي لم أقرأ لها بما يكفي، بينما ينبغي أن أفعل.

نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠)— ٧٥
يخيل لي أحيانًا أنَّه ابن تيمية الأوروبيّ، أو أنَّ ابن تيمية هو نيتشه الإسلام.

ميلان كونديرا (مواليد ١٩٢٩)— ٦٦-٦٧
قراءة رواياته تعزِّيني دائمًا؛ تلك الخفَّة التي يحب أن يعرِّيها بقسوة في الإنسان والحياة والحب تثقِّل قلبي وتؤلمني ألمًا وجوديًا يخفِّف كلَّ ما حدث أو يمكن أن يحدث.

فهرس أحلام



أ

ابتسامة أبو العباس المرسي— ٢٣
الابتسامة الوجودية — ٦١
ذبح **الابن** — ٣٧
أنا و**ابن تيمية** والله في مواجهة العالم— ٢٧
سيجارتان مع **ابن تيمية** — ٢٦
الكل ضد **ابن تيمية** — ٢٦
ابن عربي يصحح للنبي **إبراهيم** — ٣٩
ابن عطاء الله يتمنع— ٢٣
اتبع حلمك — ٤٢
الطيران **الأمريكي** يقصف القاهرة — ٩١
لوحة لفلاحين يخربون شريط القطار لقطع الطريق
على قوات **الاحتلال** الإنجليزي أثناء ثورة ١٩١٩ — ٨٩-٩١
الشيوعيون والظل **الأحمر** — ٣٨
الأخت المجهولة — ١٢
اختفاء الأم — ٩
اختفاء البيت — ٥٢-٥٣
الظل **الأخضر** — ٣٦
اخلع ملابسك واختر مهمة — ٨٧-٨٨
الإخوان المسلمون — ٥٣
الشرخ بين **الإرادة** والرغبة — ٦٣
"في الثورة"، حنة **أرنت،** ١٩٦٣ — ٧٣
مافيش حاجة اسمها **إسرائيل** — ٥٦
شكراً على **الإطراء**— ٨٣-٨٦
أظافر في العنق — ٨٤
ماذا يفعل **اعدائي** بي — ٢٦
الافتتان — ٦٣
طعام **الإفطار** — ٩٥
الالتزام بالتعليمات — ٨٨
لا تحزن إن **الله** معنا — ٢٥
لم يعد **الله** معنا — ٢٨
كان **الله** ولا شيء معه — ٢٤-٢٨
إمبابة — ٩، ٣٨، ٤٧، ٦٢، ٧٨
#بلا _ يأس _ أو _ **أمل** — ٧٣

الانزلاق نحو المعنى — ٥١
انهيار الدولة المركزية — ٩٤



ب

البحث عن شاعر — ٩٧

ت

التأويل يفتدى العالم — ٣٩
الالتزام **بالتعليمات** — ٨٨
تفكك المجتمع — ٩٤
تقاسم الأحلام — ٤٢
التنين في الحديقة — ١١

ث

#**الثورة** _ مستمرة — ٧٣
لا أحد يفعل شيئاً خارج **الثورة** — ٧٤
"في **الثورة**"، حنة آرنت، ١٩٦٣ — ٧٣
لوحة لفلاحين يخربون شريط القطار لقطع الطريق
على قوات الاحتلال الإنجليزي أثناء **ثورة** ١٩١٩ — ٨٩-٩١
لم نسمع في الراديو عن أي **ثورة** — ٧٨

ج

"مرحبا في صحراء الواقع"، سلافوي **جيجيك**، ٢٠٠٢ — ١٨
صالون **جيجك** للحلاقة— ١٨
جامع السلطان حسن — ٢٨

ح

حب الشاهد الوحيد — ٣٥
#**الحرية**_لعلاء — ٧٩
الوجود **الحر** — ٦٣
الحكم العطائية — ٢٤
تقاسم **الأحلام** — ٨٢
حلم اللحظة الكبيرة — ٧٤
اتبع **حلمك** — ٤٢-٤٣
الفيلم في **الحوض** — ٦٦
الحيل الدفاعية — ٨٥



خ
عودة **الخلافة**— ٢٤
حضرة **الخيال**— ٣٩، ٥١

د
دمار مول سيتي ستارز — ٩٤
انهيار **الدولة** المركزية — ٩٤
"ويلوموني"، عمرو **دياب**، ١٩٩٤ — ٤٩
ديكارت ومكر الله — ١٦
الدين الحق الموافق للتفلسف الصحيح — ١٧

ذ
الذاكرة الأخرى — ٩٥
لا مفر من **الذبائح** — ٣٨
ذبح الابن — ٣٧-٣٩

ر
لم نسمع في **الراديو** عن أي ثورة — ٧٨-٧٩
مشادة **الرؤساء** — ٩٣
قد صدقت **الرؤيا** — ٣٩
إن كنتم **للرؤيا** تعبرون — ٥١
الشرخ بين الإرادة و**الرغبة**— ٦٣
روبي— ٩٠
رياح في اتجاه الكنيسة — ١٦

ز
زار بدون ترخيص — ٧٨

س
سارتر ووُدي آلن في خطبة الجمعة — ٢٨
سجن القلعة — ٢٦
سنعود **للسجن** عاجلاً أو آجلاً — ٧٩
سكرة الصوفية — ٢٧
منبر جامع **السلطان** حسن — ٢٨
دمار مول **سيتي ستارز** — ٩٤
سيجارتان مع ابن تيمية — ٢٦
سيزيف — ٧٣



ش
البحث عن **شاعر** — ٩٧
حب **الشاهد** الوحيد — ٣٥
الشرخ بين الإرادة والرغبة — ٦٣
ديوان **شعر** لاتيني— ١٦
شكراً على الإطراء — ٨٣-٨٦
الشيوعيون والظل الأحمر — ٣٨

ص
صالون جيجك للحلاقة — ١٨
"مرحبا في **صحراء** الواقع"، سلافوي جيجيك، ٢٠٠٢
صراصير — ٩٦
سكرة **الصوفية** — ٢٧
لافتات بالحروف **الصينية** — ٥٦

ض
يفعل القوي ما بوسعه، ويعاني **الضعيف** ما يجب أن يعانيه — ٧٣

ط
الطائرة البرية — ٦٢
طفل في المتاهة — ١١
طعام الإفطار — ٩٥
الطيران الامريكي يقصف القاهرة — ٩١
طيف الكائن الأحب — ٦٧

ظ
الشيوعيون و**الظل** الأحمر — ٣٨
الظل الأخضر — ٣٦

ع
التأويل يفتدي **العالم** — ٣٩
لماذا لم يكن جمال **عبد الناصر** موجوداً في الحلم؟ — ٣٦
نبيذ وكبدة على مكتب جمال **عبد الناصر** — ٣٨
العدم الكامن— ٦٨
الحكم **العطائية** — ٢٤
عطل في الميكرفون — ٣٠
كريم **عنارة** لا يحبني — ٣٥
أظافر في **العنق** — ٨٤



ف
"**الفتاة** اللطيفة" — ٨٣
الدين الحق الموافق **للتفلسف** الصحيح — ١٧
الفن المعاصر — ٨٧
الفيلم في الحوض — ٦٦

ق
القاموس اللاتيني — ١٦
الطيران الامريكي يقصف **القاهرة** — ٩١
قبة الصخرة — ٥٣
القدس — ٥٠، ٥٢، ٥٥
تحرير **القدس** يبدأ من **القاهرة**؟ — ٥٥
هيكل في عباءة **القذافي** — ٣٦
لوحة لفلاحين يخربون شريط **القطار** — ٨٩-٩١
سجن **القلعة** — ٢٦
يفعل **القوي** ما بوسعه، ويعاني الضعيف ما يجب أن يعانيه — ٧٣

ك
طيف **الكائن** الأحب — ٦٧
نبيذ و**كبدة** على مكتب جمال عبد الناصر — ٣٨
أهمية **الكراهية** — ٢٩
الكفّار — ٣٧
كلية الهندسة — ٥٣
رياح في اتجاه **الكنيسة** — ١٦
"الهوية"، ميلان **كونديرا**، ١٩٩٨ — ٦٦

ل
ديوان شعر **لاتيني** — ١٦
القاموس **اللاتيني** — ١٦
لافتات بالحروف الصينية — ٥٦
لوحة لفلاحين يخربون شريط القطار — ٨٩-٩١

م
مائدة المؤتمر الجماهيري — ٣٦
متاهة — ١٠، ٥١، ٦٨، ٧٣
طفل في **المتاهة** — ١١
تفكك **المجتمع** — ٩٤



مذبحة هيئة كبار العلماء — ٤٠
ابتسامة أبو العباس **المرسي** — ٢٣
مشادة الرؤساء — ٩٣
المشاءون — ٤٧-٤٨
هروب **المكبوت** — ٥٢
منبر جامع السلطان حسن — ٢٨
نحاول ألا نموت **معك** — ٣٧
كالميت بين يدي مغسله — ٢٣
عطل في **الميكرفون** — ٣٠

ن
أحمد **ناجي** — ٨٧
نبيذ وكبدة على مكتب جمال عبد الناصر — ٣٨
نيتشه — ٧٥

هـ
هروب المكبوت — ٥٢
كلية **الهندسة** — ٥٣
"**الهوية**"، كونديرا، ١٩٩٨ — ٦٦
هيكل في عباءة القذافي — ٣٦

و
الوجود الحر— ٦٣
وجهاً لوجهين — ٦٩
سارتر ووُدي آلن في خطبة الجمعة — ٢٨
"**ويلوموني**"، عمرو دياب، ١٩٩٤ — ٤٩

ي
يفعل القوي ما بوسعه، ويعاني الضعيف ما يجب ان يعانيه — ٧٣
#بلا _ **يأس** _ أو _ أمل — ٧٣
إلى **اليسار** — ٥٦



«كيف تتذكر أحلامك»
لـ عمرو عزت

هذا الإصدار هو السادس في
سلسلة كيف تـ.

تدقيق لغوي
يزن غطاس

تصميم السلسلة
جولي بيترز

الناشرون
كيف تـ
www.kayfa-ta.com

لوحة الغلاف للفنان هاني راشد
مونوبرنت (حبر طباعة على ورق)،
٢٠٠٦، ١٨ x ٢٤ سم. من سلسلة ماسبيرو.

طبع في بيروت

ISBN 978-9953-560-39-7

